كل دا كان ليه!

اسم الكتاب: **كل دا كان ليه**

اسم المؤلف: **أحمد الأطرونى**

تدقيق لغوي: **عبد الفتاح السيد**

تصميم الغلاف: **عبد الرحمن محمد**

إخراج داخلي: **ساندي شريف إبراهيم**

رقم الإيداع: **٢٠٢١/٢٢٨٠**

الترقيم الدولي : **٩٧٨٩٧٧٨٤٤١٠٦١**

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمسائلة القانونية والآراء والمادة الواردة.

وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

إبهار
للنشر و التوزيع

E-mail: ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

أحمد الأطروني

كل دا كان ليه!

إبهار
للنشر و التوزيع

إهداء

لمن لا يهديهم أحد شيء

''المقدمة''

الكثير من التساؤلات تراود عقولنا بشكل مستمر.. كل لحظة.. كل دقيقة.. كل ثانية.. كل منا يراوده سؤال واحد على الأقل باليوم لا يجد له إجابة سوى الصمت.

لما انتهت علاقتنا رغم الحب الأعظم الذي خُلق بيننا!

لما رفُضِت من العمل بدون مقدمات رغم كوني نشيط!

لما رحل الجميع رغم كوني مخلصًا لهم!

لما رسبت بالاختبار رغم كوني متفوق!

الكثير من التساؤلات تخنق أرواحنا وتشعل الضجيج بعقولنا كل يوم منذ نهوضنا من الفراش حتى العودة الية مرة أُخرى.. تساؤلات نعجز عن ايجاد إجابة لها.. لكن السؤال الأكثر تعقيدًا من كل هذا هو..

كل دا كان ليه!

أتمنى لكم أن تحظوا بأقل قدر من الجنون بعد أن تنتهي من قراءة هذا..

بعد الثانية عشر ليلًا..

كادت الساعة تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل..

حين يأتي الليل يتعرى الجميع.. بالليل تسقط أقنعة النفاق وتظهر حقيقة النفس البشرية.. الجميع يقلع ثوب الحرباء ويرتدي ثوبه الحقيقي.. بالليل تجد العابد يزداد إيمانًا وخشية من الله.. والكافر يزداد كفرًا.. تجد العاشق يضيء الشموع ويخاطب النجوم عنها.. وهذا الذي هجره حبه الوحيد يبكي على الذكريات.. بالليل تجد مشُعلِ الحشيش يلهوا ويسخروا من الحياة.. والعالِم يتشبع بالمزيد من العِلم.. تجد من ينتظر الليل على نار من جمر حتى يخلد إلى النوم.. وتجد أخر ينتظر الليل لكن وبكل بؤس يزوره لكن برفقه أحزانه فلا ينعم بالنوم أبدًا.

من بين كل هؤلاء تجلس هي بشرفتها.. ضوء القمر يعلوها وأضاءة المصابيح الخافتة بعض الشيء تضيء لها تلك العتمة.. وبالخلفية صوت موسيقة هادئة.. إلى جانب كل هذا توجد منضدة يزينها كأس من الشمبانيا وعلبة ممتلئة بلفافات التبغ وواحدة منهم مشتعلة تزين شفتيها.

تجلس على كرسي خشبي مرتفع قليلًا ليصبح بمستوي الحامل الذي يحمل فوقه لوحتها البيضاء التي عزمت على خلق الحياة بها.. تجلس وبيدها فرشتها وبدأت تبدع بألوانها.. طلقت العنان لعقلها ولروحها لخلق لوحة فنية فريدة من نوعها.

بينما كانت تطفو روحها فوق السحاب من فرط الشمبانيا والأبداع.. عادت مرة أخرى إلى الأرض بفضل صوت الجرس الذي ضرب بذلك الوقت المتأخر من الليل.. نهضت من مجلسها لتعرف من الطارق وإذا بها تجد أمامها شاب أنيق.. تبدو عليه ملامحه الوسامة ويتبعها الارتباك.

-أقدر أساعدك بحاجة.!

قطعت صمته ونظراته التي كادت أن تهلكها من كثرة التحديق بها بهذه الجملة التي تفوهت بها بكل ثبات حتى لا يدرك حالة اللاوعي التي تشعر بها.

ابتلع ريقه وتمالك أعصابه قائلًا:

-هو أنا، هو أنا.

ردت بابتسامة ساخرة..

-هو أنت أي بس قولي!

أجابها مندفعًا.

-هو أنا ينفع أدخل.!

أجابته وهي تبحلق في عينية مستهزئة من طلبه قائلة:

-طب حضرتك ملقتش وقت بدري أكتر من كدا تيجي فيه.!

طب كنت اتأخر شويه كمان على الأقل أعرف أدخلك من غير مـ السكان تاخد بالها.

شعر بالإهانة من طريقة حديثها، فكان على وشك الاعتذار لما حدث منه والرحيل لكن سبقته هي ضاحكة قائلة:

-تقدر تتفضل عادي مفيش مشكله، أنا قولت أخضك بس مش أكتر.

أشرقت الابتسامة على وجه مرة ثانية وهو يخطو بقدمية داخل الشقة.. وبدأ ينظر لها بتمعن تلك المرة بعد أن أغلقت الباب وظلت مكانها لبضع دقائق، لا يعلم عمرها لكنه خمن بأنها في مطلع الثلاثين من العمر جميله لكنها شاحبة الوجه حين تراها تظن أنها كانت تركض.. بالأعلى كانت ترتدي قميصً واسعً مهردل يشبه ما يرتديه موظفين الحكومة أثناء تأدية عملهم الروتيني القاتل.. وبالأسفل كانت ترتدي -على الموضه - سروال قصيرًا للغايه فوق الركبة تلحق به الخدوش. ويغطي رأسها شعرًا أسود اللون قصير أيضًا يشبه الرجال أو ربما هي من قصتة-على الموضة – لتبدو أكثر جمالًا. فـ للنساء قصيرات الشعر جمال خاص. وأما قوامها فكان منسق وكأنه منحوت بعناية ودقة.

تحركت من مكانها ناحية الشرفة وتبعها هو. لكن أستوقفه شيئان وهما لوحاتها الكثيرة المعلقة على الجدران أجمعها، فقد كانت لطيفة تشبه صاحبتها، تجعلك تتوقف عندها متأملًا رغمًا عنك، لوحات لها روقنها

وسحرها الخاص الذي جعلته ينظر لها كما ينظر الطفل الصغير للأهرامات بزيارته الأولي. وبدأ عقلة يتساءل.

-أي الجمال دا!؟ أمتي وازاي اتخلق الجمال دا!

-أنتَ هتفضل واقف متنح في اللوحات كده كتير ولا أيه.!

قالتله بنبرة ضاحكة قطعت بها تأملاته للعظمة التي تزين الجدران:

لكن لم يشعر بالإهانة هذه المرة لأنه أدراك إنها ليست واقفه على كوكب الأرض فأدراك ما كانت تخفية أدراك أنها تحلّق بالسماء راقصة مع النجوم، علم أنها ثملة إلى حد ما.

اتبعها ناحية الشرفة، لكن ظل الشيء الثاني يلفت الانتباه ولم يتمكن من غض البصر عنه، فقدميها الشبه عاريتين هؤلاء كان من الصعب رؤية بياضهم من كثرة الرسومات التي كانت عليهما.. ف قدميها عبارة عن لوحه فنيه تتنوع وتخلط بها الرسومات – التتوهات-ما بين الثعابين، النيران، العقارب، الفراشات ورسومات أخرى لم يتمكن من رؤيتها بوضوح لصغر حجمها.

كانت تبدو من الخارج كالرسومات، لكنه نظر إليها على أنها كلمات.. كلماتٌ عجزتْ أن تبوح بها في رسوماتها على جسدها.. كأنها تطبق مقولةً قرأها من قبل:

"حين تعجز عن الحديث فعليك بالرسم"

جلستْ تكمل تشكيل لوحتها، وتنفخ دخان التبغ بالهواء.. فتَحرَّك حتى جلس بجوارها ناظرًا إليها من جديد.

-أنا بقول كفايه بص ليا بقا وقول في أي.؟

ألقت عليه سؤالها بصوت لين وهي تنظر للوحه غير مباليه بوجوده والبحر يداعب خصلات شعرها ويجعله يرقص من فرط هوائه.

شعر بثقة وأجابها متلعثمًا قائلًا:

-شقتك دي كانت مقفوله من أول مجيت سكنت في العمارة إلى قصادها، أقصد يعني إني عمري ما شفت البلكونة دي مفتوحة قبل كدا، لحد مشفتك.

هنا التفتت له وقالت بخبث:

-أى كمان يا ترى؟!

رد متلهجًا..

-لا لا متفهمنيش غلط، أنا بس لما شوفتك استغربت.. وبصراحه فضولي وداني للبواب وسألته عليكِ -ارتبك ثانيتًا – أقصد سألته عن الشقة.

قالت وهي تطفي لفافة التبغ بنبره ضاحكة..

-وياترى قالك أي البواب دا.!

-بصراحة، طلع ميعرفش غير إنك ساكنة جديد هنا كان ممكن أتجاهلك عادى بس فشلت.

تابع وهو مبتسم بسذاجة.

-فضلت متابعك فتره، كنت لما أفتح بلكونتي بليل أجدك قاعدة هنا. يوم بعد يوم أتأكدت إنك كل يوم بتقعدي في بلكونتك بليل.. ودايما قدامك لوحه ومعاكِ أدوات رسم. فكنت عايز منك...

تفوه بهذا وصمت للحظات قليلة منتظر أي رد فعل.. لكنها لم تتلفظ هي الأخرى بأي حرف.. اكتفت بصب المزيد من الشمبانيا بالكأس ووضعت قدم فوق الأخرى.. وأخذت تكمل رسمتها بكل هدوء وثبات.

خيم الصمت عليهما لبعض دقائق.. ظل يبعث هو بأنامله في لحيته.. ثم اختلس لفافة تبغ منها وقام بأشعالها وقال بضيق شديد وبملامح غاضبة تشبة ملامح ضابط الشرطة أثناء تأدية عملة..

-كنت عايز أديكي صوره لخطيبتي ترسميها بمناسبه عيد ميلادها.

قال هذا ثم عاد الأرتباك يتبعه مرة أخرى قائلًا..

-وكنت عايز.

ضغط بقدميه على الأرض متقمصًا دور ضابط الشرطة قائلًا:

-كنت عايز أعرف أنت مين؟!

أجابته باستنكار قائلة:

-بس كدا.!

رد بحزم.

-أيوه طبعًا.

رمقته بنصف نظرة حادة، فشعر بالخوف، فتمتم بصوت منخفض.

-أكيد مقصدش حاجه، أنا فعلًا عايز أعرف دا بس.

ابتسمت ابتسامه نصر لرهبتة.. ثم أعادت عينها مرة أخرى للوحه وجعلت الموسيقى ترتفع درجه أعلى مما كانت عليه وكأن الحرب ستبدأ الآن وتعلو الرصاصات فوق رؤوس الجميع وسوف يكون هناك أسرى.. أسرى كتب عليهم الرحيل إلى اللأشيء.

توقفت عن الرسم ثم مالت برأسها تنظر للوحة، كأنها تحدث نفسها.

-كفاية كدا ولا أكمل تاني.!

لكن الإجابة كانت لا وأمسكت بالفرشة مرة أخرى وصبغتها بلون جديد، وكان اختيارها من نصيب اللون الرمادي، فأختلط جزء من الفاتح منه مع الغامق، وأعادت تكمل رسمتها بألوانها المتفرقة.

تنهدت ثم قالت وعينيها بدأ يصبغها اللون الأحمر من أثر الكحول،

-في بنت أتولدت في الصعيد أسمها ازهار مكنتش تعرف أي حاجه في حياتها غير الرسم، الرسم بالنسبة كان إدمان و...

قاطعها متسرعًا بسؤاله.

-أنتِ ليه بترسمي.؟

أخذت نفسًا عميقًا وابتسمت فقد راق لها هذا السؤال، فأجابته بكل أراحيه..

-بالألوان بنصنع حياة.

لما ترسم بأقلامك وتلون بفرشتك وقتها أنت بتخلق حياة جديدة، حياة مفيش فيها أي عبث أو فوضوية.. حياة أنت الـ اخترت تشكلها مش حياة فرضت عليك.

نظرت له مبتسمه ثم أكملت قائلة:

-الفنانين وخاصة الرسامين منهم لهم مزاج خاص، بيشربوا مشروبهم المفضل ويسمعوا موسيقتهم الكلاسكية الأنيقه الـ تشبهم، يقعدوا قدام لوحتهم وبفرش الألوان يخلطوا الأزرق مع الأحمر، والأحمر مع الأسود، والأسود مع الأبيض، يخلطوا كل الألوان الـ ملهاش أي علاقة ببعض، وفي النهاية يخلقوا روح جديدة، روح الكل يقف يتفرج عليها وهو مستمتع بكل تفاصيلها يتفرج عليها ورجله لمسة الأرض وقلبه طاير بالسماء.

أزاحت شعرها عن عينيها ثم واصلت وهي تنظر إلي عيناه قائلة:

-فينست فان جوخ على الرغم من الحزن والآكتئاب الـ كان بيعيشه، لكنه قدر يرسم لوحات بتتباع دلوقتي بملايين، بعد الـ عمله فان جوخ برغم الظروف القاسية الـ كان بيعشها خلاني اقتنعت أكتر بأول جمله كتبتها تحت أول لوحه رسمتها.

"أيتها الحياة ادهسيني كما تشائي.. فألواني ستحييني ولو بعد حين. "

قالت: هذا ثم صمتت وأمسكت بفرشتها من جديد ونظرت للوحتها وبدأت تصنع حياة.

أطفى لفافة التبغ بعد أن انتهى منها ثم قال:

-كملي.

أكملت بنبره مجهده، هنا بدأ الحديث منهك وكأنه سكين يذبحها رويدًا رويدًا.

-المهم البنت دي والدها رفض إنها ترسم، بحجة إن الكلام دا مش تبع عادتنا وتقاليدنا وإن البنت لجوزها وبيتها مش للرسم، مع كل لوحه كان بيكسرها كان جزء من روحها بتموت معاها، كان أهون عليها يموتها هي بس تفضل اللوح سليمة، بس للأسف كانت كل يوم بتشوف حلمها بيموت قصاد عينها وهي كانت عاجزة عن إنها تنقذه، وكبرت البنت وكبر الحزن معاها.

توقفت للحظه قائلة:

-أكمل ولا كفاية.؟

أو ما برأسه بالموافقة.

-في ليله حست بصداع رهيب وحمي شديده، تاني يوم راحت للدكتور لأن التعب كان صعب عليها أوي، كانت واثقه إن الموضوع بسيط وهيعدي عادي، وراحت البنت للدكتور.

عضت على شفتيها وأكملت بكل مرارة.

-البنت اكتشفت إنها مصابة بالإيدز.

قالت هذا وظل هو محدقا بها، أترتسم على وجهه الكثير من المشاعر، سخط، اشمئزاز، تلبد، استعجاب، وأسؤهم كانت نظرته الأخيرة التي

رأتها هي دون عن غيرهم، رأت بعينة نظرة شفقه فقابلتها بنص ابتسامة ساخرة وأخذت تتابع حديثها قائلة:

-هو والدها عمل زيك بالظبط، بس ضاف حاجه بسيط خالص.

وجهت نظرها إليه وأكملت مبتسمه متألمة.

-هربت قبل ما تموت.

هنا أصبحت الذكريات تطعن قلبها دون شفقة أو رحمة فخانتها عيناها وسقطت دمعة على وجنتها.

في بعض الأحيان لا ندرك ما نفعله، لا ننظر للعواقب ولا العسرات فقط كل ما يشغلنا هي قلوبنا، تحرير قلوبنا التي دفنت حيه بالمواقف والأحداث، نسعى جاهدين للتخلص من كل ما يبكينا، كل ما يجعلنا نصاب بالوحدة والتعاسة، كل ما يجعلنا مستنهكين رغما كوننا ننام بالفراش لا نفعل شيء، كل ما يجعلنا نشعر بالوجع والحسرة، نسعى جاهدين للعثور على أنفسنا التي ضللنا الطريق عنها منذ زمن.

ماذا سيحدث.؟ كيف يمكن أن تواجه الحياة وهي عاريه ليس لها أحد تتكء عليه.! هل ستموت جوعًا أم قهرًا.! المساجد ستكون مسكنها أم الملاهي ستفتح لها أبوابها على مصرعيها.! ماذا يخبئ لها الزمن أكثر من هذا.!

كل هذه التساؤلات لم تشغل بالها وهي تعد حقيبتها للرحيل، ليس قوة منها ولا جحود بل هي الحياة، نحن نولد أبرياء ثم تلهو بنا الحياة وتسخر كما

طربت أم كلثوم حينما قالت " سوف تلهو بنا الحياة وتسخر..." رددتها أكثر من مرة وكأن اليقين كان يملأها وهي تردد هذا.

في بعض الأحيان علينا أن نقتل الماضي حتى نحيا حياة هادئة، حياة أقل قسوة مما نحياها الآن.

ظل صامت كما هو يتابع المشهد من بعيد وتمتمت هي قائلة:

-أُتُهِمّت بالفُجر والعُهر وهي كانت أشرف منهم كلهم.

بدت علامات الاستفهام على وجهه، فأجبته قائلة:

-والدها مكنش عنده العلم الكافي الـ يعرفه إن الإيدز ليه طرق تانيه كتير غير العلاقات الجنسية، مكنش جاهل بس كان سطحي، مدهاش فرصة تدافع عن نفسها وتوضحله إن المرض انتقل عن طريق دم ملوث دخل جسمها زي ما الدكتور قالها.

استدّارت إليه وأكملت.

-تخيل، بنت عندها ٢٤ سنه تصاب بمرض زي دا وأقرب الناس ليها يتهموها ويرفضوا يساعدوها وكمان يخدوا عزاها كأنها ماتت بالنسبة ليهم.

فزع قلبها من بشاعة الماضي فسقطت دمعه منها رغم عنها قائلة:

-متخيل قسوة الواقع.

ابتلعت ريقها وهي تمسح دمعتها وأكملت وهي تلون كما كانت مبتسمه ابتسامة نصر قائلة:

-كان ممكن تستسلم للواقع والقدر بس لا... رجعت ترسم وواجهة الحياة بجبروتها ووحشيتها، وبدأت علاج، ومكان الطفح الجلدي الـ كان بيظهر على رجليها بسبب المرض فضلت ترسم عليه عشان متشُفوش، وفي الأخر سكنت هنا، سكنت في اسكندرية.

تنهدت قائلة: بلذه وشموخ.

-منكرش إن البنت خسرت كتير طبعًا، بس دورت على نفسها التايهه ولقيتها، ودا كفاية.

عدلت ظهرها وضحكت بصوت عالٍ فزعته قائلة:

-خلصت خلاص.

تسأل قائلًا بعد أن خلع قلبه من بين ضلوعه لتنوع صوتها بين الحزن والضحك.

-هي أي دي الـ خلصت!؟

-اللوحة، اللوحة خلصت.

نهضت من مكانها بعد هذه الثرثرة التي جعلتها تستعيد جزء من وعيها. فقامت بوضع زجاجة الشمبانيا بفمها ثم أنزلتها فارغه.

أمسكت باللوحة وأعطتها له وهي تتأرجح بعد أن فقدت قدرتها على الثبات قائلة:

-اتفضل دا أنت، تقدر تعتبرها هديه منى ليك.

أخذ اللوحة ونظر لها باستنكار، ثم قال باستهزاء.

-بس دي خطوط، أقصد إن اللوحة نص باللون الأسود ونص باللون الرمادي، أنا فين بقا.!

لم تجب على سؤاله الساذج هذا، وخطت مترنحة ثملة ناحية الموسيقي وقامت بتشغيل أغنية لفرقة غنائية تسمى مشروع ليلى وقبل أن تبدأ الموسيقى أشارت إليه قائلة:

-بشوف الناس ألوان، عشان كدا قولت إن دا أنت وزي ما أنت شايف كل اللوحات الـ حواليك دي ألوان بس، أصل أنا بطلت أرسم بني آدمين حقيقيين.

ثم ختمت حديثها معه قائلة:

-هتعيش حياة سعيدة لو خرجت من اللون الرمادي وبقيت أسود.

رفع من نبرة صوته حتى تسمعه بعد أن رفعت صوت الموسيقي قائلًا:

-بس ليه أسود؟

ضحكت بسخرية من تسأله وهي تترنح وتخبط كف بكف قائلة:

-الأسود مش لون كئيب زي ما أنت معتقد، بالعكس دا لون نقى واضح للشخص عكس الرمادي تمامًا تتوه فيه.

ثم بدأت تلوح بيديها وترقص كما لو كان الرقص منجاها من جميع الأحزان، بعد أن قرر المغني أن ينهي حديثهم ليبدع قائلًا:

" عم بطلع عمال أطلع، عم بنزل عم بنزل، نسيني أيدين بيي لما أنزل، بتعاقبني لما أطلع حتى أنزل، للمريخ..."

ما بعد رحيل الآخرين ...

" وها نحن أيها السادة نواجه أخطر شيء بالعالم، خطرًا لا يعرف حدود... خطرًا يجهل بالإنسانية، لا يفعل شيء سوى أنه يبتر قلوبنا بأخذ أحبابنا منّا دون رأفة أو شفقة بقلوبنا الهاشة، خطرًا وحده الله القادر أما نحن فنتولى الحذر منه.

ونظر لهذه الأمور العصيبة التي تمر بها البلاد والعالم بأكمله، يجب على جميع المواطنين أن يتبعوا التعليمات الصحية والالتزام بجميع الإرشادات الطبية والوقائية، وعدم الخروج إلى الشوارع من الساعة ٧ مساءً حتى ٧ صباحًا، والجلوس في منازلكم وعدم الخروج منها إلا للضرورة القصوى...

وبالنهاية نرجوا من شعب مصر العظيم عدم مخالفة الأوامر، وندعوا الله أن يزيل عنا ذلك الوباء ويحفظ مصر وشعبها العظيم."

سمعت ليندا ذلك الخطاب الذي كان يلقيه رئيس الجمهورية لمواجهة فيروس كورونا، بالبداية ظنّت أن الأمر هين وأن الشعب لن يلتزم بشيء مما قيل، لكن بمساء اليوم التالي نظرت من شرفتها فرأت الشوارع فارغة والمصابيح مطفئة وظلمة الليل في كل مكان ولا يضيء تلك العتمة سوى ضوء القمر وكأن الساعة الثانية عشر بعد منتصف الليل وليست السابعة مساءً.

حين كانت ترى هذا سمعت صوت خارج غرفتها يقول:

-أنتِ يا هانم يا الي جوه، أخرجي اغسلي المواعين.

نفخت ليندا في ضيق ثم خرجت تجاه صوت والدتها وابتسمت قائلة:

-سبحان الله، الشعب المصري بجلالة قدره أتغير وسمع الكلام أخيرًا، وأنتِ يا ماما متغيرتيش ولسه بتخليني أغسل المواعين حتى وأنا دكتوره، بذمتك في فالدنيا كلها دكتوره تغسل مواعين.

-أيون، بنت اسمها ليندا طارق ولو مدخلتش دلوقتي على المطبخ سلاح الأم المصرية– الشبشب–هو اللي هيدخلها.

ضحكت بشده فهي تعرف بالرغم من قسوة أمها إلا إنها تحبها بطريقة لن يحبها أحد مثلها، جلست بجانبها ثم عانقتها كأنها تختبئ بين ذراعيها من بشاعة العالم، فالأحزان دائمًا تسقط في أحضان أمهاتنا،

لمست وجه أمها بلطف وتساءلت قائلة:

-بقولك أي يا ست الكل، هتعملي أي لو عرفتي إنه فاضل يوم واحد بس والعالم دا ينتهي.

-ليه كده يا نكديه، أنا حتى لسة مفرحتش بيكِ.

-هتفرحى في الآخرة بقا متقلقيش، يلا بقا ردي عليا هتعملي أي؟ هتحضني طارق صح!

ركلتها أمها بكتفها وهي تبتسم بخجل قائلة:

-أصلك مهزئة وأنا معرفتش أربي.

-مش جوزك فيها أي يعني.

صمتت والدتها لبضع ثواني وكأنها تتخيل الموقف وأجابت قائلة: بنبره هادءة.

-لو بكرة نهاية العالم، هحضن كل اللي بحبهم، هعاتب وأصالح كل اللي بحبهم وأنسى الزعل إلـ بينا ونتصالح، وكمان هعمل كل الـ نفسي فيه.. كل الـ كنت خايفة منه هعمله بكل قوة، أصل خلاص مش هيبقى في وقت والحياة مش هتتعاد تاني.

أنهت حديثها بينما كانت تنظر لها فريدة باهتمام، تنتظر منها أن تكمل لكنها كانت بالفعل قد انتهت.

-عرفتي هعمل أي، يلا قومي بقا عشان عايزه أنام، تعبت يا بنتي.

-أنا بحبك يا ماما.

-وأنا كمان يا ست البنات.

وضعت قبله على جبين ولدتها ثم نهضت فريدة لمهمه غسيل المواعين وبدأت تشغل أغنيتها المفضلة، فهي أغنية أو مهرجان كما يطلق عليه البعض وأخذت تردد معه بصوت عالٍ، فالموسيقى وخاصَّة المهرجانات الشعبية لها نكهة ولون خاص، لها سحر خاص يجعلك ترقص رغمًا عنك.

أنهت ما كانت تفعله ثم جلست في شرفتها ومعها كوب من القهوة، جلست وبدأت تفكر في كلام والدتها وتحدث نفسها.

-هل ممكن العالم ينتهي فعلًا وأحزاني لسه منتهتش! ممكن ينتهي قبل محقق أي حاجة في حياتي حتى ولو إنجاز بسيط! قبل مصرخ بصوت عالي وأعيط! أعيط لحد مينتهي كل البؤس والكآبة الـ في قلبي، قبل مشرب النبيذ الأحمر زي ما أتمنيت! قبل ملبس الفستان الأحمر الـ كان نفسي فيه!

لا لا، أكيد مش هينتهي العالم كدا، أكيد مش هخرج من الحياة من غير محقق حاجة من الـ حلمت بيها أو أتمنتها، أكيد لا.

عادت للواقع مرة أخرى وهي تهز برأسها لتخرج منها كل هذه الأفكار السوداوية، وتركت فنجان القهوة جانبا بعد أن انتهت منه، وأمسكت بهاتفها فاتحه تطبيق الواتساب وأخذت تنظر لصورته الشخصية وتتأملها بتمعن وكأنها النظرة الأخيرة قبل أن ينهار العالم، وقامت بفتح الشات الخاص بهم وجمعت قوتها وكتبت.

-ازيك يا عمر، أنا ليندا، ليندا طارق الـ كنت معاك في الكلية، مش عارفه أنتَ هتفتكرني ولا لا! ومش عارفه حتى أنتَ بقيت فين دلوقتي في مصر ولا

سافرت زي مكنت بتقول! ومش عارفه برضوا أنتَ ارتبطت ولا لا! بس كل الـ عارفاه ومتأكده منه إني عايزه أقولك إني بحبك، فضلت مخبيه وكاتمه كتير بس خلاص مفيش وقت مـ هو الحياة مش هتتعاد تاني.

بحبك يا عمر.

أرسلت الرسالة ومعاها قلبها، الذي وضعته بخانة اليّك، فأما أن يعود متوجًا بحبه أو يحتضر من قساوة ردة.

تركت هاتفها جانبًا وقامت بارتداء فستانها الأحمر القصير بعض الشيء الذي كان يظهر كل مفاتنها الأنثوية ثم تزينت كما لو أنها ذاهبه إلى مناسبة وخرجت إلى الشارع، كانت الساعة على وشك الإقتراب من الثانية بعد منتصف الليل، أخذت تسير في الطريق دون هدف أو غاية فقط هي تمشي وتنظر لما حولها من مباني وأشجار وسماء وقمر، تنظر لهم كما لو إنها تودعهم، وأخذت تتمتم بينها وبين نفسها مرة أخري قائلة:

-ازاي الشوارع بقت فاضيه كده، معقوله فيرس سخيف زي دا يخلي كل الناس تخاف وتترعب بالطريقة دي، دلوقتي الحيوانات بقت أفضل من الأنسان، الحيوانات دلوقتي بقت هي صاحبه الحرية بتمشي في الشوارع في أي وقت ومن غير غرامة وكمان من غير ما يصيبها أي مرض.

توقفت عن السير ووضعت حقيبتها على الارض، ونظرت إلى السماء بابتسامة خفيفه مزيفه، وبكل ما لديها من طاقة وقوة بدأت في الصراخ والبكاء بصوت عالٍ.

كلفها الأمر بعض من الوقت والطاقة، لكنها لأول مرة تشعر أنها أصبحت بخير من جديد.

لكل منا منجاه ومنقذه الذي يتخلص به من آسرّ أحزانه، فهنالك من يقضي على أحزانه بالخمور، وأخر يتغلب عليها بالموسيقي، القهوة، القراءة، الرقص، النوم، الدعاء أو البكاء كما فعلت هي.

عادت إلى منزلها دون أن يشعر بها أحد، أصبح وجهها لوحه فنيه معقده بسبب ما أحدثه الكحل والمسكرة عندما كانت تبكي.

حينما دخلت غرفتها تذكرت أنها تركت الشرفة مفتوحة فذهبت كي تغلقها وإذا بها وهي تغلقها رأت هاتفها الذي تركته يضيء معلن عن وصول إشعار، أمسكت بِه وتسمرت مكانها من شده الفرحة حينما قرأت بعينيها الباكيتين.

-أيوه طبعًا فاكرك، عمري في يوم منسيتك، كل مره كنت ببصلك فيها وأحنا في الجامعة كنت بشوفك أحلى من اللي قبلها، زي ما أنا متأكد دلوقتي إنك بقيتي أحلى وأحلى، آه سافرت باريس عشان شغل بابا هناك، ولا لسه مرتبطتش، صدقيني مقدرتش، حسيت إن روحي عشقتك وقلبي مقدرش يشوف غيرك.

أنا وهبت روحي ليكي يا فريدة، وعشان الحياة مش هتتعاد تاني، أنا هنزل الأسبوع الجاي مصر عشان أزوركم وأطلب أيدك.

بحبك يا ليندا.

تحولت مشاعرها في لمحة البصر، وأخذت تضحك بطريقه هستيريا كـ طفله صغيرة حينما تحصل على الشكولاتة، ثم أرسلت له،

-تسمع اغاني؟!

-ليه لا!

فأرسلت له أغنية، أغنية -لو بكرة نهاية العالم – لفرقة موسيقية تدعى كاريوكي.

" لو بكرة نهاية العالم، هنزل أفول عربيتي وأخدها وأعدي عليكِ ننزل نتفسح..."

بتلك اللحظة ارتسم على وجه الطبيب ابتسامة لطيفة عادت به إلى ذكريات شبابه حينما كان بعمر فريدة، لكن سريعًا تذكر أنه بالعيادة، ونظر إلى فريدة المستريحه بجسدها على الشازلونج، قائلًا بنبرة المعالج النفسي:

-كملي، سكتي ليه يا ليندا؟!

-فين شنطتي؟

-اتفضلي أهي.

اعتدلت من جلستها وأخرجت من حقيبتها علبه سجائر، أخذت منها واحده وضعتها بين شفتيها المصبوغتين بالروج الأحمر الجذاب، أخذت تنفخ دخان سجائرها في الفراغ حيث ما كانت تنظر ثم أعادت نظرها إلى الطبيب مرة أخرى قائلة:

-عمرك دخلت تحدي قبل كده يا دكتور؟!

أغلق مذكراته وتوقف عن التدوين ثم نظر لها قائلًا:

-أكيد، أحنا بندخل تحدي كل يوم تقريبًا، تحدي مع نفسنا أننا نفضل متماسكين بالرغم كل اللي فينا، تحدي مع اللي حولينا بأن كلامهم السلبي ميأثرش فينا، وتحديات تانية كتير.

ضحكت بسخرية ونهضت من مكانها متجهة ناحية الشرفة حيث اتبعها الطبيب إلى هناك.

-تقريبًا لو كنت اتخصصت في الطب النفسي زي حضرتك، كنت عملت عيادتي زي دي، حقيقي عيادتك روعة.

ابتسم مجاملًا قائلًا:

-شكرًا دا من ذوقك.

ابتسمت ومالت برأسها إلى الخلف وإذا بشريط الذكريات يعيد نفسه مره أخري، وآه من الذكريات وما تفعله بقلوبنا، قائلة وهي تطفي سيجارتها:

-بالرغم إن الوقت مكنش مناسب وشغله اتعطل ودا طبعًا لأنهم قفلوا المطارات بعد نزوله لأن عدد ضحايا الكورونا كل يوم كان بيزيد بطريقة غير منطقية، رغم التعاسة إلـ كانت بتحاوطنا إلا أننا اتجوزنا.

أمسكت بيدها شاردة مع الذكريات وختمت حديثها قائلة:

-تقدر تقول إن الحياة بقا لونها بمبي زي ما سعاد حسني قالت.

الحب يا ساده يجعل للحياة معني في وقت لا معني للحياة به، في وقت كان الوضع كل لحظة يزداد سوءً في العالم بأكمله، في مصر تم إغلاق المساجد

وامتداد الحظر عن المدة المحددة، بالسعودية أُغلق الحرم المكي وهذه هي المرة الاولي في تاريخ الإسلام، وأما عن إيطاليا فقد استهانوا بالمرض في بداية الأمر لكن هاهم الآن يسقط آلاف منهم يومًا بعد يوم، لكن أتعسهم بريطانيا حينما قال رئيس الوزراء البريطاني حرفيًا:

" يجب أن أكون صريحًا معكم فإن الكثير من العوائل سيفقدون أحبابهم قبل وقتهم "

ودول كثيرة فقدت شعبها كل يوم دون أن ينجدها أحد.

الكورونا أصبحت لعنة أطاحت بالجميع دون تفرقة بين عربي ولا أعجمي، فكانت بمثابة الوحش الجائع الذي فتح له باب القفص بعد أن طال حبسة، نيران كانت تبتلع كل ما تجده أمامها، الكورونا جعلت القلوب هشة، متألمة، منكسرة، فلم تترك أحد إلا وأخذت منه فرد عزيزّا عليه تاركًا بداخله ألمًّ لن يشفي أبدًا.

-ليندا أصحي، أصحي يا حبيبتي.

-في أي يا عمرو؟! حد يصحي حد بليل أوي كده!

-ليندا أصحي الحقيني، أنا، أنا مش قادر أخد نفسي.

وهنا سقطت دموع ليندا أمام الطبيب، فأدرك أن حلمها الوردي أصبح كابوس شنيع.

ساد الصمت في الشرفة عدا صوت الموسيقي، موسيقي حزينة هادئة تكمل ما عجزت فريدة عن شرحه.

تركت دموعها تسيل من عينيها ثم ضمت يديها إلى صدرها ونظرت إلى الدكتور، أخذت نفس عميق زفرته بشدة كأنه إعصار ثم نظرت للسماء مبتسمة وكأنها رأت وجهه بالسماء فبكت قائلة متحسرة:

-عمرو مات بالكورونا.

ظلت تبكي لبضع دقائق، بضع دقائق تبكي بها فريدة والطبيب ينظر لها دون أن يهمس بأي حرف، تركها تبكي فكان يعلم أن البكاء سيطفى من نيران قلبها قليلًا:

وضعت وجهها بين كفيها ونظرت للأرض وأخذت تواصل بكائها على حظها بالحياة وتلاعب القدر بها.

ثم رفعت رأسها ونظرت للطبيب قائلة:

-متخيل إني مكنتش عارفه أشوفه لأنهم مانعين الزيارات، عارف يعني أي تبقي قاعد في مكان وأقرب حد لقلبك بعيد عنك في مكان تاني والمرض بياكل في جسمه، عارف يعني أي كل حاجه ليك في الدنيا بتضيع من إيدك بكل بساطه وسهوله وأنتَ واقف مشلول مش قادر تعمل حاجه.

العجز، العجز يا دكتور أنا كنت عاجزة إني أساعده حتى لو بضحكه.

تنهدت وبروح شبة حية بعد حدوث هذا أكملت.

-الموت عمره مكان عادل، دايمًا بياخد كل اللي بنحبهم من غير رحمه بقلوبنا.

الموت لو عنده قلب ويعرف يعني أي حسره ووجع القلوب عمره مكان هيعمل كده بقلوبنا.

تركها الطبيب حتى توقفت عن الحديث قائلًا:

-بس الموت رحمة يا ليندا وحقيقة لازم نؤمن بيها ونصدقها.

قال هذا ولم يكن مؤمن به.

ردت سريعًا قائلة:

-لما تبقي طول عمرك وحيد وتعيس ويجي حد يملي حياتك فرح وحب، والموت ياخده منك بكل سهوله، هتعرف إن الموت حقيقيه صعب إنك تصدقها.

صمت الطبيب ليس لأنه عاجز عن الحديث بل لأنه يعلم قسوة الموت على الأحياء والأموات.

وتابعت فريدة بعد أن مسحت دموعها.

-بس عارف، أنا مجتش عشان موت عمرو.

نظر الطبيب وبدأت علامات التعجب على وجهه قائلًا:

-أمال عشان أي؟

-مشهد، مشهد محفور جوه دماغي مش قادره أنساه هو اللي خلاني أجي هنا.

-مشهد؟!

-في يوم خرجت على ماما بالصالة لقيتها قاعدة هي وجارتنا بيتكلموا، حرفيًا أنا مكنتش عارفة هما بيقولوا أي؟ رغم أن صوتهم كان عالي، الحزن كان مخليني حتى مش قادره أسمع نفسي من كتر الضجيج إلـ كان في عقلي والوجع إلِـ كان في قلبي.

" تخيلي بعد كل دا ولادة رفضوا يستلموا جثتة دا حتى رفضوا يروحوا يبصوا عليه بعد ما مات"

جملة معرفش ازاى سمعتها، بس قومت تلقائي جريت نحيتهم وطلبت أعرف فى أي؟ عرفت أن الحاج هشام إلي في العمارة عندنا أصيب بالمرض ومات في المستشفى وللأسف وحصل الجملة الـ سمعتها بالصدفة.

صمت الطبيب هذه المرة وأخذ ينظر لها ويطلب منها أن تكمل حديثها.

-تخيل في الوقت اللي عمر كان تعبان فيه أنا كنت بعمل أي وهما بيعملوا أي مع باباهم!

الحياة طلعت هزليه يا دكتور، لعبه سخيفه، كنت فاكرة لما أدخل معاها تحدي وأتجوز عمرو وأفرح في الظروف دي يبقي هزمتها.

غبي اللي عقله يصورله أنه ممكن يدخل تحدي مع الحياة ويكسب،

شغفي تجاه الحياة مات خلاص، أنا عايشة بس عشان وقتي في الموت لسه مجاش.

الإكتئاب عمره مـ هيفرقني وأنا مش عايزة أتعالج منه، مش عايزة أرجع أشوف حقيقة الحياة تاني، مش عايزة أتحداها تاني، أنا بس جتلك عشان كنت محتاجة أتكلم شويه وخلاص إتكلمت.

ثم واصلت بإبتسامة مستهلكة وهي تستعد للرحيل.

-أكيد هتقابل غيري فكر يتحدى الحياة ويهزمها وإنتهي بيه المطاف عند دكتور نفسي .

سلام.

إختلاف...

-بما تشعر الآن؟

أجابني مبتسمًا:

-لا شيء، أنا لم أعد أشعر بشيء، حتى ذاتي توقفت عن الشعور بها منذ زمن.

البداية..

مضى وقت كبير ولم نلتقي، لا أعلم كيف حدث هذا؟ فيما مضت الخمس أعوام هذه؟! فأنا لم أراه منذ تخرجنا من الجامعة، التخرج من الجامعة كان بداية النهاية التي لا أعلم علتها حتى الآن، لكن لا يهم فقد تعاهدت على رؤيته اليوم، فكيف لي أن أنساه وهو صديقي! أعترف بأننا مخطئان، فلم تشغلنا الحياة كما يدعي المؤقتون، نحن فقط توقفنا عن التساؤل والحديث وهكذا إنتهينا.

علي أي حال أنا في طريق رؤية نصفي الأخر، لرؤية صدقي آسر، متلقها أنا لقضاء يومًا معه كما كنا نفعل من قبل، نقضيه متجولين بالشوارع نغني بصوت عالٍ حتى يسبنا أحد المارة متهمنّا بقلة الحياء وسوء التربية، وحين نمل من السير نجلس بالمقاهي، كنا نجلس نتحدث في اللاشيء، نتحدث فيما يضحكنا ويدخل الفرحة على قلوبنا فقط، لم نمتلك حينها ما يكفي من مال للتجول بالطرقات بالسيارة لكنها كانت أجمل أيام حياتنا.

-كعادتك تأتى متأخر.

خطوت نحوه ثم ابتسمت قائلة وأنا أُعانقهُ:

-وكعادتك تنتظرني دائمًا مهما تأخرت.

الأيام لم تترك أحد منا على حالته، فقد تغيرت ملامحه بعض الشيء، أصبح لدية لحية كثيفة وجسد عريض بعد أن كان أملس الوجه رفيع الجسد، أما عني فلم تتغير ملامحي بل تحولت صفاتي، من شاب إعتيادي التفكير إلى رجل ناضج يعرف كيف يزن الأمور، من شخص سطحي إلى شخص محلل ومفكر، أصبحت دائم الفكر للدرجة التي تجعلني أتمنى كثيرًا أن أمسك عقلي أدفنه حيًا كما كانوا يوئدون البنات بالجاهلية.

-منذ متي وأنت تجلس بملاهي ليلية يا آسر؟

قولت هذا بنبرة خبيثة، حقًا فهو لم يكن من زوار هذه الأماكن أبدًا.

-أنت محق، دعّنا نرحل، فقد مللت من قضاء حياتي هنا.

ابتسمت له وأنا أركله في كتفة قائلًا:

-دعنا نستعيد الماضي ونسير بالطرقات ونجلس بالمقهى، دعنا نعود كما كنا.

أخذ يبحث بجيبة عن النقود حتى وجدها ثم التفت لي قائلًا:

-لا تقول (كنا) بل قل (نكون) فـ لو مضى مائة عام لم نلتقي بهم ستظل أنت صديقي الوحيد والأقرب إلى قلبي.

نفخ دخان سجائره وهو يتابع قائلًا:

-دعنا نرحل يا صديقي، دعنا نرحل قبل أن يأتي النادل ويكتشف أنني لم أترك له الحساب كاملًا.

ضحكت بشدة من فعلته تلك، وأسرعنا بالخروج.

-هنا نور واحد فقط يضيء المكان وليس مائة لون يحيط بك، هنا الحياة.

سخر من وصفى للمقهى قائلًا:

-أصبحت متفلسفًا كبيرًا، لكنك غفلت أن عقلي أبسط من كل هذا التعقيد فلا يمكنه أن يدرك ما قولته الآن.

ضحكت بشدة من صراحته المفرطة تلك، فنحن لا نشبه بعضنا أبدًا لكننا أصدقاء وبشدة وهذا يكفي.

-كيف حالك يا صديقي؟ إلي أين قذفّت بك أمواج الحياة؟

-أمواج الحياة جعلتك تنسى أنني لا أتناول القهوة دون سجائر، أعطني واحدة أيها الأبلّه.

أشعلت لفافة التبع وبدأت بالحديث فقد هلكني الكتمان في غيابه.

-لا شيء فقط فقدت حبي الوحيد ولحقتها وظيفتي الوحيدة أيضًا وأصبحت بلا حبيب يؤنس قلبي وبلا عمل أحيا منة، أصبحت عاشق حزين ومفلس فـ أنًّ واحد، هذا كل شيء.

-كانت حبك الأول؟!

سخرت من تسأله لكن أجبته وأنا غير ملتفت له قائلًا:

-نعم، كانت حبي الأول وستكون الأخير.

وضع قدمًا فوق الأخرى قائلًا وهو غير ملتفت لي أيضًا:

-لا تقل هذا أيها الأحمق، ستحب من بعدها مرة أخري لا تقلق.

التفت إليه قائلًا بنبرة إستهزاء:

-ومن أين لك بهذا اليقين، أتعلم المستقبل أنت!

أعتدل في جلسته ثم تنهد قائلًا:

-الحب الأول وآه من الحب الأول.

أخذ ينظر للسماء كأنه يجلب الحديث منها ثم واصل قائلًا:

-وأما عن الحب الأول فأنت فريسته، فريسته التي ينتظرها منذ زمن بعيد، فحين تلقاه يتغذى على روحك دون أن تشعر، يقذف قلبك في قبور الأحزان اللانهائية، يخسف بمشاعرك الأرض، يجعلك تسقط أشد السقوط في أحزانك، يصور لك إنك عاجز عن مواصلة الحياة،

لكن تخيل ماذا! بالوقت ستتعافى منه، سوف تنهض أشد النهوض، تنهض وأنت مصاب بالنضوج العقلي، متيقنًا أن الحب ليس شيء هين يمكنك

إقترافه، فالحب الأول هو الدرس التي تمنحه لك الحياة دون مقابل، تمنحك إياه لكي تتعلم النضوج ومن ثم تتعلم كيفية تجاوز خيبات العلاقات القادمة بكل ثبات وهدوء.

هنا فقط نهضت من مكاني مصفقًا له فنهض هو أيضًا وانحني لي متشكرًا، وهنا سخر الجميع منّا، أما نحن فلم نبالي بهم فهذه عادتنا نفعل ما يحلو ويروق لنا غير مبالين بالأخرين.

باعتقادي أن هذا هو السر الحقيقي للسعادة بالحياة، أن تفعل ما يروق لعقلك ويهدئ به قلبك دون أن تبالى بأحد، إفعل ما يجعلك سعيدًا، فهؤلاء الذين يقدمون على إنتقاضك والسخرية منك ومن أفعالك التي تدخل السرور علي قلبك، أقسم لك أنهم لن يقدموا لك السعادة أبدًا حتى لو كانت بين أيديهم.

-دعنا نتجول بالشوارع لكن وأنت تحدثني عن أحوالك، فأنا بحاجة إلى سماعك.

أخدنا نسير بين الطرقات بلا هدف، نستعيد ذكرياتنا ساخرين منها ومن أنفسنا معاها، فقد كانت بنا سذاجة للدرجة التي جعلتنا نشعر بالفرح أثناء تخرجنا من الجامعة ولم نعلم بأن الجحيم ينتظرنا خلف هذا التخرج، فتبدأ المشقة من الجيش الذي يفتح لك ذراعيه بعد التخرج، ويتبعه الزواج وتحمل المسئولية، ثم وبدون مقدمات تجد نفسك زوجًا وحين يفوق عقلك ليدرك هذا تجد نفسك أبًا لطفل جديد جاء للحياة، وتظل هكذا

كلما ظننت أنك وصلت إلى النهاية تجد نفسك في حلقة جديدة من حلقات الحياة، حقا فأنا على يقين تام أن متع الحياة تنتهي بإنتهاء التعليم.

أمسكت بزجاجة المياة التي كانت معي وكأنها ميكرفون قائلًا:

-والآن أعزاءنا المشاهدين وكما نرى ضيف حلقة اليوم هو ذلك الشاب الحقير الذي سألته عن حالة مرة سابقة لكنة لم يجب.

وجهت المايك – زجاجة المياه-ناحيته وأنا متقمصًا دور المذيع فأجب هو قائلًا:

-لم أجب لأنني لم أرغب بالإجابة عليك لا أكثر.

قال هذا وألقيت أنا بالزجاجة بعيدًا وأخذت أُبرحهُ ضربًا حتى أقسم بأنه سوف يجيب على تساؤلي، فأمسكت بالزجاجة مرة أُخرى قائلًا:

-بما تشعر الآن؟

أجابني مبتسمًا:

-لا شيء، أنا لم أعُد أشعر بشيء، حتى ذاتي توقفت عن الشعور بها منذ زمن.

للحظة ما شعرت بقبضة بقلبي، شعرت بأنه يخفي شيء ما، شيء يؤلمه بشدة لكنة يتظاهر بالثبات، وقبل أن أتفوه بأي شيء سبقني هو قائلًا:

-ها قد وصلنا إلى المنزل.

نظرت له متعجبًا قائلًا:

-منزل من؟!

أجابني وهو يصعد بخطوات بطيئة على سلالم العمارة القديمة بعض الشيء لكنها مازالت محتفظة بأناقتها، أجابني قائلًا:

-منزلي، نعم فقد رحلت عن أهلي وسكنت هنا.

تابع قائلًا وهو يفتح باب الشقة:

-مرحبا بكِ في عالمي العشوائي.

أقدمت ناحية الشقة بالدخول، فقد صدق في قولة أنها عالم عشوائي، فهذه ليست شقة، لم تكن مرتبة، لا يوجد بها شيء نظيف.

فهي تبدو من الخارج شقة، لكنها من الداخل لا تفرق كثيرًا عن مقلب القمامة.

لم أتمكن من الجلوس وسط هذه القاذورات، فأقدمت ناحية الشرفة وانتظرته بها حتى جاء هو قائلًا:

-تفضل أعدت لك كوب من القهوة وأعدت لنفسي كوبًا من الشاي.

جلسنا نتسامر سويًا فيما ليس له أهمية بالحياة مثل ماذا يحدث لو الحياة بلا إناث؟ أبقينا هكذا حتى حولت مسار الحديث متفلسفًا قائلًا:

-من وجهه نظري أن القهوة تشبه صاحبها، فهذا الذي يرتشفها وهي شديدة السخونة فهو رجل عاشق ولهان لكل شيء يدخل السرور علي قلبك، أما الذي ينتظر قليلًا حتى تبرد فهو مثلها تمامًا بحياته الخاصة بارد، مشاعره ثقيلة، أما الذي يتناولها حتي النهاية رجل يمنح لكل شيء قيمته رجل مقدر

لقيمة الأشياء بحياته، وذلك التى يبقي القليل منها أو نصفها هو رجل حكيم يأخذ من الأشياء ما يقنعة وليس ما يجب أخذه.

-من أنت؟ سقراط أنت أم أفلاطون!

-دعك مني وأخبرني، ما بك؟

-سأخبرك بكل شيء، لكن بشرط؟

-ها هو الأبله حينما يهتم به أحد.

-سوف أخبرك بكل شيء لكن بعد أن أنتهي من الحديث عليك بتنفيذ ما آمرك به.

لم أرغب بإضاعة الوقت أكثر من هذا وأومأت برأسي موافق ليس لأنني موافق بل لأنني أرغب أن أشاركه حمله الثقل الذي يحمله فوق قلبه.

إبتسم ساخرًا ثم ضغطت علي كفيه من شدة التوتر قائلًا:

-منذ أن خلقت وأنا أشعر بأن هناك شيء ما، ربما العالم والآخرين فاقدين عقولهم أم أننى أنا المختلف أكثر من المطلوب.

لم أشعر يومًا بالإنتماء لشيء أو لشخص حتي عائلتي لم أشعر بالإنتماء لهم، دوما كنت أري نفسي مختلفًا عن العامة، لا يهم إختلافي هذا كان جيد أم عكس ذلك، لكنى كنت مختلفًا، وآه يا صديقي من كونك مختلفًا وسط قطيع يشبه بعض.

لم أرغب بمقاطعته لكن أخذت أنظر له بكل ما أوتيت من إهتمام ليكمل هو قائلًا:

-رحلت عن أهلى، وأقمت وحيد هنا كما رأيت، لكن الإختلاف مازال يتبعني، أحببت فتاة لكن الإختلاف مازال يؤلمني، أصبحت كل يوم فى صراع تام بين البقاء معها أم الإستمرارية بالإختلاف، فقد كنت أهواها لكن لا أرغبها، بالنهاية استسلمت وبكل ضعف إلى الإختلاف، مضت الأيام وأنا قلبى فارغ مشردًا بين الحياة وأيامها.

لم أتمكن من الصمت أكثر من هذا وأسرعت متسائلًا:

-كيف يمكن للإختلاف أن يكون عقبة أو عيب وليس صفة تميزنا عن الآخرين؟ وماذا تعني بالإختلاف؟

أشار بإصبع الإبهام إتجاهي ثابت الملامح قائلًا:

-الإختلاف أيًا كان نوعه جيد أو سيء فهو يميزنا عن الأخرين كما قلت، لكن لكل إختلاف ضريبة يجب عليك أن تسددها، وأنا أمضيت وأمضي وربما سوف أمضى ما تبقى من حياتي بتسديد هذه الضريبة.

صمت لثوانٍ معدودة وأبعد بنظره عني قائلًا:

-فقد كنت ومازالت مختلفًا.

إبتلع ريقه وواصل قائلًا:

-أنا شاب يعاني من الشذوذ الجنسي.

سمعت هذا وشعرت بأن أحدهم ألقي بصخرةٍ كبيرة من فوق قمة جبل على ظهري فسقطت أشد سقوط حتي أنقسم ظهري من فرط الألم.

أبقيت ناظرًا له متحفظًا بملامح الثبات، فكنت أنا عاجز عن الحديث لكن عقلي لم يعجز أبدًا.

-من هذا الذي يجلس أمامي؟ أهو صديقي المقرب أم من! أين صديقي القديم؟ فذلك الشخص الذي يحدثني الأن حقًا لا أعرفة.

قاطعني هو قائلًا:

-أتمني أن يتوقف عقلك عن الحديث على الأقل الآن، أخبره أنني مريض وليس أكثر من هذا، أعني أنه سيأتى يومًا وأتعافى منه،

وأكمل بمنتهي الخذلان قائلًا:

-أو ربما لا أتعافى منه وحينها لن تتراجع قدمي عن الإنتحار خطوة واحدة، أخبر عقلك أنني لست راضي عما أنا عليه الآن، أقسم لك أنني أسعي جاهدًا للتخلص منه، إجعل عقلك يمنحني القليل من العطف فأنا أحارب وحدي دون أن يعلم رفيق ولا حبيب بمعاناتي.

ظل ينظر إلى اللاشيء كما كان وظللت أنا مكبل اليدين والعقل والقلب أيضًا، وأخذت أحدث نفسى قائلًا:

-أبغضه الآن أم أعانقه؟ أقرأ علية الآيات القرآنية التي تحرم هذا أم أشجعه علي مواصل العلاج والتعافي منه؟ أخبرة أنني لم أعد أرغب بمعرفته بعد أن تعري أمامي أم أطمئنه قائلًا: " أنت لست وحدك لا تحزن "؟ ماذا أفعل؟

قطعني هو للمرة الثانية قائلًا:

-لقد أنهيت حديثي وإنتهيت أيضًا.

وقبل أن يتابع هو قاطعته قائلًا بكل عفوية:

-مادومت أنا حيًا فـ أنت لم تنتهي بعد.

أتكأ على كتفي فلن أخذلك أبدًا، سنواصل الحرب سويًا وستمضي هذه الأيام ونجلس هنا مرة أخرى نسخر من هذه الذكرى التافهة، كل شيء سيصبح على ما يرام أقسم لك، لا تقلق فأنا صديقك والصديق لا يهجر أبدًا.

مسح وجهه من الدموع التى تساقطت من حديثى قائلًا:

-لو ضاقت بى الحياة يومًا فأعذرني، عليك أن تعلم أن الأمر لم يكن هين أقسم لك، عليك أن تعلم أنني حاولت وحاولت وحاولت.. حاولت مرارًا وتكرارًا لكن هذه المرة نفذت طاقتي وعجزت عن مواصلة الحرب، لا تتركهم يدعونني منتحرًا ولا تدعهم ينهالون عليا بالسب واللعن. أخبرهم أنني لم أكن سيء أبدًا، أخبرهم أنني عاونت الجميع على التعافى من أحزانهم وعانيت أنا بمفردي بين هذه الجدران، أخبرهم أنني لم أوذِ أحد سوى روحي.

لم يفلح الثبات هذه المرة وقمت بعناقه وظل هو يبكي كطفل صغير فقد أمة.

هدأ قليلًا ثم ركلني بكتفي قائلًا:

-والآن أمامك شيء واحد فقط لتفعلة، إما الرحيل حيث لا عودة مرة أخري ولا تقلق سأبتلع مرارة الأمر كما أبتلعت ما هو أكثر ألمًا ومرارة منه وإما أن تعدني أنك لم تسمع مني شيء وتتركني أنام الآن؟

إبتسمت لأخفف حدت الموقف قائلًا:

-لما النوم ي أبله أمللت مني؟!

-أبدًا يا صديقي، لكن للنوم لذة خاصة لا يمكن تعوضيها، فهو مخدر يجعل الألم يتوقف قليلًا حتي ولو لبضع ساعات حتي تتمكن من مواصلة الحياة بكل ثبات.

قال هذا ثم اتجه ناحية الفراش، ورحلت أنا تاركه ينل مخدره بعد أن نزف من كل هذه الآلام، رحلت وأنا متعاهد بيني وبين ذاتي، أننا سنواصل الحرب سويًا.

فرصة سعيدة..

لم أعد أُفضل خوض المناقشات؛ لأنني لا أكمل نقاش حتى النهاية، وأيضا لم أعد أسعى إلى الأقتراب من أحد، لأنني سيء للغاية لم أبقى بجوار أحد حتى النهاية، كنت أسعى دائمًا إلى إتمام الأشياء على أكمل وجه، أما الآن لم يعد لدى الشغف لفعل شئ من الأساس، دومًا ما تنفذ طاقتي بالمنتصف فأتخلى عن الأشياء مها بلغت أهميتها، الكثير كان يرى هذا خمول منى، لكنى كنت أراه إنسحاب، إنسحاب لنفاذ الطاقة.

-ممكن أقعد؟

أفقت من شرودى على هذا الطلب، لأجد أمامى فتاة سمراء بعض الشئ، عينها بنى اللون، إبتسامتها تضيف إلى جمالها جمال أخر.

بادلتها نفس الإبتسامة قائلًا:

-اتفضلي.

جلست وهى في غاية السعادة ولا أعلم لما هذه السعادة! ولا أعلم من هى من الأساس؟

-معاك ولعة؟

-نعم!

-ولعة، أنت مندهش لية؟

-اتفضلي.

-ممكن سجارة بقا معاها؟

-نعم!

أجابت مبتسمة:

-أيون سجارة زى ماسمعت.

بدأ القلق يراودنى بينما واصلت هى..

-تعرف أنى مش بدخن أصلًا، بس حاسة أنى محتاجة أدخن معاك.

نظرت لها متعجبًا، ظننت أنها تعرفني منذ زمن من فرط ثقتها وهي تحدثني. زاد تعجبى حين نفخت هواء التبغ وأمسكت بيدي قائلة:

-أخر طلب، فنجان قهوة.

ثم أكملت قائلة:

-وأنا برضو مش بشرب قهوة، بس حاسة إني عايزة أشرب معاك.

أشارت إلى الصنادل لتلبية طلبها، وبالفعل أحضر النادل القهوة سريعًا، كانت ترتشف القهوة وتنفخ دخان سجائرها وتنظر حيثما كنت أنظر أنا منذ قليل، بينما كانت هي صامتة أخذت أنا أتأملها، للحظة ظننت أنني، أعرفها بسبب شدة ثقتها بى وهي جالسة معى.

أعتدلت بجلستى قائلًا:

-أنتِ مين؟

أجابتني بكل ثقة وغرور:

-رهف.. أنا رهف.

تبدلت ملامحها وتابعت وهى تلوح بشعرها إلى الخلف قائلة:

-عمري ماحسيت إني أستحق كل دا، دايمًا كنت حاسة إني أستحق حياة ألطف من دي، حياة هادية أقدر أكمل فيها، مش حياة يضيع عمري كله وأنا بحارب فيها.

تعايشت مع فكرة إني أعرفها فتسألت قائلًا:

-مالك؟

أجابتني وهي تطفئ لفافة التبغ قائلة:

-أنت اللي مالك؟ كل يوم تقريبًا بتيجي تقعد فى نفس المكان دا على التربيزة ونفس فنجان القهوة ودخان السجاير.

رفعت حاجبى قائلًا:

-أنتِ مرقباني بقا!

-عارفة أنك مش هتصدقني، بس أنا حقيقي كنت بخمن ودي أول مرة أشوفك.

شعرت بالإحراج لما قالت، فابتلعت ريقى قائلًا:

-أنا برضو كنت بكذب، أنا أول مره أجي هنا.

قولت هذا وبدأت هي بالضحك واتبعتها أنا، فقد كان الأمر مثير للضحك والسخرية.

-تعرف يا خالد، أنا عمري ما حبيت أي حاجه فى الحياة قد السماء.

قطعتها مسرعًا قائلًا:

-أنا مش اسمي خالد!

ولم تبالى بى وواصلت حديثها مبتسمة بحزن..

-دايمًا لما بحزن ببص للسماء، بحس إن حزني بيتوه فيها لأنها واسعة أوي، فى كل مرة ببص للسماء وأنا زعلانة حقيقي بحس إن زعلي انتهي وضيق قلبي انتهى ، وأني عندي طاقة أحضن بيها العالم كله.

-للدرجادي!

-أيو طبعًا.. المهم أنا لازم أمشي دلوقتي وبكرة لازم أشوفك فى نفس المعاد والمكان.. سلام.

قالت هذا ثم رحلت سريعًا، رحلت ولم تعطني فرصة للحديث.. لا أعلم من هى ولا أعلم من أين أتت لكن علي أي حال تأنس قلبي بجلستها وحالت عنه الغربة التي كانت تسكنه.

وها قد جاء اليوم التالى لكنها لم تأت، لا أعلم لماذا شعرت بالضيق والغضب فى آن واحد، وخاصةً لأنه مضي أكثر من يوم على هذا الحال، أحضر أنا إلى الكافية وأجلس علي ذات التربيزة وأتناول القهوه وبالنهاية لا تاتى هي.

هناك دائمًا أشخاص يقتحمون حياتنا رغمًا عنا، نتعلق بهم ثم ماذا يرحلون كما أتوا رغمًا عنا.

مضى أسبوع وأنا علي هذا الحال حتى ظهرت هي مرة أخرى، حين رأيتها أحسست وكأن قلبى كاد أن يقفذ من بين أضلعي من فرط السعادة، لكنى تظاهرت أمامها بالكبرياء وجلست أمامها صامتًا غير مبالي بها.

-أنا ممكن أعتذر لك عن غيابى بس لا مش هعمل كدا؛ لأنك معتذرتش ليا عن تأخيرك.

إشتدت حيرتي وغيظي وانفجرت بها قائلًا:

-تأخير اي؟ أنا كل يوم كنت بستناكي زي ما اتقفنا بس أنتِ اللي مكنتيش بتيجي، أنتِ اللي اتأخرتي مش أنا.

سقطت دمعة منها فى بداية حديثي، وحين انتهيت انهارت هي بالبكاء، ثم قالت مرتجفة باكية:

-عرفت إن التأخير بيوجع، أنا طول عمري كنت بستناك، وأنت طول عمرك كنت بتتأخر عليا، حتي كلمة أسف كنت بتتكلف تقولها، أنت متخيل أنك طول الوقت دا عمرك مسألت نفسك أنا فى كل مرة كنت بستناك

ومش بمشي؟ لأني لو كنت مشيت مكنتش عارفه هروح أشتكيك لمين، لأني لما كنت بحب أشتكي من حد كنت بشتكيلك أنت يا خالد.

قالت هذا وأخذت حقيبتها ورحلت مسرعة كما فعلت من قبل، كنت على وشك أن أفقد صوابي لما تفعله، رحلت وتركتني وأنا فى قمة غيظي، وأنا أحدث نفسي قائلًا:

-أنت يونس مش خالد.

حقًا جعلتني أفقد الثقة بذاتي فقد كنت علي وشك الإيمان بكوني آسر وليس آدم، رحلت أنا أيضًا فلم أستطع البقاء أكتر من هذا، لم أسمح لقلبي الإقتراب منها، فكيف لي بالتعلق بالمجهول! لا أعلم لكن كلما منعت عقلي عن التفكير بها أجد قلبي يحدثني عنه،. حقًا لا أعلم عنها شيء حتي اسمها لا أعلمه، لكن دون سبب أو علة أشعر بإنتماء إليها وكأنها موطني الوحيد الذي ولدت به ولم أسكن غيرة.

مضيت أيام قليلة.. مضت وأنا أتمزق بها بين الرحيل عنها أم العودة مرة أخرى إليها ربما أجد ضلتى معاها وأهتدي الطريق بها؟ وبالنهاية سقط كبريائي وذهبت مرة أخرى إلى الكافية، وبالفعل وجدتها بانتظاري لم تراني أو ربما هي لم تري من حولها من الأساس لأنها كانت منغمسة بكتابة شيء ما، جلست أمامها وهي غير مبالية بوجودي ثم قولت مبتسمًا:

-ممكن نكتب سوي لو حابه!

تركت القلم من يدها ثم قالت بسرور:

-وحشتنى.

التزمت الصمت واكتفيت بالإبتسامة.

انطفئت ملامحها حينما بخلت بالرد عليها فزفرت قائلة:

-يومك كان عامل اي؟

-مكنتش كويس خالص فى بعدك.

إبتسمت بخجل وأزاحت بنظرها بعيدًا عنى، فتتساقطت أحزان النساء وكبريائهم أمام كلمة حلوة تداعب قلوبهم

-بتحبي الكتابة؟

-جدًا، عمري محبيت حاجه زيها بحياتى.

قالت هذا دون تفكير ولو للحظة، ثم واصلت وهي تنظر إلى عيني قائلة:

-كل اللي فى حياتى خذلوني ومشيوا إلا قلمي.. قلمي دايمًا كان هو اللي بيسندني، مكنتش بعرف أتكلم مع اللي حواليا، تقدر تقول فقدت لغة الحوار، بس جمعت كل طاقتى وكتبت، وقت الحزن كتبت.. الفرح.. الضيق.. الوحدة.. النجاح أو الفشل.. في أي وقت كنت بكتب، كنت بضَحك نفسي وبعتذر لنفسي وبقول لنفسي كل اللي كنت مستنياه من العالم في كتاباتي، حالة جنون صح!

مددت يدي لها قائلًا:

-طب ممكن أقرأ اللي كتبتيه؟

أعطتني مذكرتها واختلست مني لفافة تبغ مقابل هذا، بينما هي كانت تشعل لفافة التبغ كنت أنا أقرأ..

(تفتكري هنقدر نكمل..!)

مع نهاية كل يوم كنت بسأل نفسي السؤال دا، بسأل نفسي هنقدر نكمل ببواقي الإنسان اللي جوانا ولا لا! هنقدر نكمل بالحسرة اللي في قلوبنا ولا لا! هنقدر نكمل بالضياع والإنفصام اللي بنعيشه كل لحظة دا ولا لا! هنقدر نكمل بتوتر أعصابنا ورعشة أيدينا اللي محدش لحظهم غيرنا ولا لا! هنقدر نكمل وإحنا كاتمين كل دا جوانا ولا لا!

من فترة قريبة كانت الإجابة لا، حسيت أني مش قادرة، وأني مستحقش كل دا، وأنه مش من العدل أعيش الحياة دي، ولا من العدل أن كل حاجه تبقى صعبة كدا.

حسيت إني محتاجة أخد هدنة، محتاجة أبطل حرب، محتاجة أتصالح مع نفسي بإن بواقي الإنسان اللي فيا مش قادرة تكمل.

وفعلًا قدرت أعمل دا، قررت أبعد شوية، أدور على نفسي وألملم حطام روحي، وأقول ل نفسي..

(أوقفي تاني، إحنا هنقدر نكمل.)

وقدرت أنجح، بعيدًا عن أني خرجت خسرانة شوية علاقات وصحاب، إلا أني كسبت نفسي وده كفاية.

لأنه مش من العدل إن الإنسان يعيش حياته كلها فى حرب.

أبقيت صامتًا لبرهة من الزمن، عجز لساني عن الحديث تعثرت به الكلمات كعادته، ابتلعت ريقى ثم تفوهت قائلًا:

-لية الحزن؟

إبتسمت إبتسامة منكسرة قائلة:

-لأن دا الواقع.

تركت الورقه جانبًا وضممتت يدي إلى صدري وقولت والهواء يملئ صدري.

-بس أنتِ لية بتكتبي حزن!

أجابتني وهي شاردة حيث اللاشيء قائلة:

-مفيش كاتب مش بيكتب حزن، لكن أنا وبكل فخر بكتب عن الحزن زيهم وبكل شراسة.

ضحكت ثم التفتت لي وهي تواصل حديثها...

-كل حاجة حوليك بتدفعك ناحية الحزن، الأهل.. الصحاب.. العلاقات الفاسدة اللي بتستهلكنا.. الموسيقى.. حتى مواقع التواصل..كل دا خلى الأقلام بقت مش بتخرج إلا الحزن.

نوبة مشاعر كثيرة ومختلطة أصابت قلبي بعد أن قالت هذا، لم أدرك شيء من هذه المشاعر سوى شعور واحد فقط، شعور جعلني أمسك يدها قائلًا:

-بحبك.

-تعرف أنك أجمل من الشمس فى لحظة غروبها.

بدت علامات التعجب على وجهي من تلك الإجابة القاتلة، فقامت هي بكل هدوء من مكانها وأشارت لي بيدها للرحيل، خطت بعيد عني وأنا

صامت، لا أعلم شيء وكأن لجام لف حول فمي فلم أستطيع الحديث ولو بكلمة واحدة، لم أعلم حينها ما أصابني لكن لم أكن بخير.

إبتسمت ساخرًا من القدر ومن تلعبه بى، حين أرسل لى فتاة من حيث لا أدري، لا أعلم عنها شيء، أُصاب بغرامها، ثم ترحل من حيث أتت، وأُصاب أنا من بعدها بعلة الفراق يآل سخرية القدر منا ومن قلوبنا الهشة تلك.

هذه المرة لم أترك نفسي لذاتي وعقلي الذي لم أنل منهم سوي المرارة

مضى عشرون يوم ولم نلتقى، تحالفت أنا وعقلى ضد قلبى، هكذا أمضيت حياتى، لكن قلبى لم يرحمنى، كل ليلة يحدثني عنها وعن جمالها، والأسوء من هذا أنه وضع لها الملايين من الإعتذارت عن رحيلها هكذا، لم أصمد أكثر من هذا، وانتهت المعركة بين عقلى وقلبى بانتصار قلبى كعادته، وعودت مرة أخري إلى الكافية، وكالعادة وجدتها تكتب غير مبالية بمن حولها، وكأن الكتابة مخدر تسلب منك عقلك وأظن أن هذا أفضل مخدر على الإطلاق.

-ممكن أقعد؟

-أخيرًا ظهرت.

قالت هذا وهي متلهفة مبتسمة لكن هذه المرة كانت على غير عادتها، فوجهها كاد أن ينفجر من شدة السعادة، تلك السعادة والإبتسامة التى جعلتني أغفل عن غضبى منها.

وضعت يدها فوق يدي قائلة:

-تفتكر لو كل حاجه ساكتة جتلها الفرصة إنها تتكلم لمدة ثواني.. القمر مثلًا.. متأكدة إنه هيصرخ من شدة الوحدة اللي بيعيشها.. الشمس والبحر أكيد هيقولوا كل أسرار العشاق اللي قالوها لحظة الغروب.. تربيزات الكافيهات هتحكي عن كل لقاء وفراق حصل عليها.

تنهدت ثم قالت بدون مقدمات..

-أنت لية بتحبني؟

-لية بحبك!

طب هو أنا ممكن أقولك أنا لية معاكي لحد دلوقتي أحسن.

-تفتكر لية صحيح؟!

-عارفة لما تروحي تشتري أنتيكة وتتفاجي إن هي قطعة واحدة بس ومفيش منها تاني في العالم.

-أيوه طبعًا دا بيبقي أعظم إنتصار في العالم، كفاية إحساس أنك معاك حاجة مش عند أي حد تاني.

-وهو دا اللي خلاني أكمل معاكي.

تنهدت ثم قالت وهي مغمضة عينها بعض الشئ:

-أنت جميل أوي، بس حقيقي أنا مش هقدر أكمل يا خالد.

أبعدت يدها وقولت بنبرة حاسمة غاضبة:

-أنا مش خالد، وبعدين مش قادرة تكملى ازاي مش فاهم؟

واجهت غضبي بهدوء تام منها، خاصةً حينما لمست بكفها وجهى قائلة:

-ممكن تهدي وأنا هفهمك؟

لم أجب عليها وأزحت يدها بعيدًا عنى، رغمًا عن هذا إلا أنها ظلت هادئة ومبتسمة ثم قالت:

-فى الوقت اللي كنت بشوفك فيه كنت بحب خالد.

قالت هذا ونوبة حزن مفجعة أصابت قلبى بينما واصلت هي وضع السكين بقلبى دون شفقة قائلة:

-حقيقي كنت بحبة أوي، بس حقيقي تعبت فى حبة أكتر، تعبت لدرجة أنى مكنتش عارفة أشتكيه لمين، لحد مظهرت أنت وقررت أعتبرك خالد، وأقولك كل اللي كنت بخاف أقوله له هو، كنت ضعيفة أوي فى حبه.

أخرجت زفير شديد ثم اعتدلت بجلستها وأكملت قائلة:

- فضل واهمني أنه بيحبنيُ، لحد مرجعت هى من السفر، بنت كان بيحبها قبلى.

ابتسمت ساخرة وهى تواصل حديثها قائلة:

-أول مرجعت سبني ورجع ليها.

أخذت تعبث بأناملها الرقيقة بشعرها الأسود الداكن المُسترسل، ثم رمقتني بنظرة تبعتها إبتسامة ساخرة يملؤها الحزن والحسرة معًا قائلة:

-تخيل أني كنت بنادول، كنت مُسكن لقلبه لمدة ٣ سنين.

هنا فقط لم يتمكن قلبها من كتمان حسرته أكثر من هذا وهربت من عيناها الدموع، أخذت تبكى وأنا صامت كعادتي، ظلت هكذا إلا أن مسحت دموعها ثم انهت حديثها بكل جحود قائلة:

-كنت دايمًا لما بغيب عنه فترة كنت ببقى خايفة جدًا، ببقى خايفه أتنسى أو لما أرجع ألقي مكاني اتاخد، بالرغم من التعب اللي كنت ببقى فيه إلا أن خوفي علي مكانتي وحبي عنده كان منهك ومتعب أكتر من حزني شخصيًا، كان منهك للدرجه اللي كانت بتخليني أتجاوز تعبي وزعلي بسرعه علشان ألحق نتكلم تاني وأشوفة تاني قبل ما أتنسى، قبل ما حد ياخد مكاني.

تجاوزت تعبي لدرجة أني غصب عني كنت بعيط من أقل شيء، كنت طول الوقت عايشة فى ضغط وخوف.

بس خلاص أنا دلوقتي عايزة أعيش حرة، أعيش في هدوء، أعيش فترات حزنى كاملة من غير تجاوز أو تراكمات، أنا عايزة أعيش في سلام نفسي.

صمتت لثوانٍ وانهت حديثها مبتسمة كما كانت قائلة:

-فرصة سعيدة أنى شوفتك ي يونس.. سلام.

حياة..

الساعة الثانية ظهرًا..

أشار بيده ليستوقف أتوبيس النقل العام لتوصيله إلى منزلة بعد يوم عمل شاق وممل كالعادة بشركة الإستيراد والتصدير.. أسند برأسة على زجاج الأتوبيس من فرط الصداع الذى لم ينجو أبدًا منة بفضل ثرثرة وضوضاء الركاب.

أخذ يتأمل الركاب كعادته ليعلم رفقاء دربه بهذه المرة.. فهو على إقتناع تام أن أتوبيسات النقل العام تمثل الحياة.. حيث أنها تنطلق من البداية بموعد محدد.. ومن ثم يتصارع الناس على البقاء بها.. فمنهم من ينجح بذلك الصراع ويحظى بمقعد مميز خاص به.. ومنهم من يتوهم بأنه فاز بالصراع لكونه وجد مكان بالطرقة يمكنه أن يقف به.. لكن أتعسهم هؤلاء الذين تضيق قلوبهم قبل إنتهاء الرحلة فيلقوا بأرواحهم نحو الهلاك محررين أرواحهم من البؤس والحزن الذي كانوا يحيونه.. وبالنهاية يصل الأتوبيس إلى نقطة النهاية فى موعد محدد أيضًا وهنا يرحل الجميع.

عاد من شروده وأفكاره العشوائية هذه على ورقة.. ورقة مطوية كانت أسفل قدمة لمحها وهو يهم بالنزول.. مد يده ممسكًا بها وأخذ يتفحصها وكأنه عثر على كنز.

فقد كانت ورقة بيضاء مطوية تزينها آثار أقدام كثيرة.. إختلط لونها الأبيض بالقليل من التراب لكنها مازالت مطوية.

نظر بجانبة للراكب الذي يجلس بجوارة قائلًا ..

-تفضل هذه الورق سقطت منك.

تعجب الراكب قائلًا ..

-لا لم يسقط منى شئ.

كاد أن يكمل النقاش معه لكن قطعه صوت السائق اللعين الذي إنهال عليه بالسباب نظرًا لعدم نزوله كما أخبره، فوضع الورقة بحقيبته وهم بالنزول سريعًا.

مضت الأيام سريعًا، وهو يمارس روتينه الممل بثبات وهدوء من بين عمله والصداع الذي يراودهُ دومًا، ورؤيته أصدقائه بالمساء وهكذ.. ظل هكذا لمدة ثلاثين يومًا لم يُخل بشيء من الروتين هذا، وفى أحد أيام عمله وهو يتفحص ما بحقيبته باحثًا عن ورقة فقدها أمسكت يديه بالورقة المطوية التى عثر عليها بالأتوبيس، فنظر لها قائلًا باستخفاف:

-مازلت بحقيبتي أيتها المغتربة.

فوضعها على مكتبه وأخذ الورقة المطلوبة ثم واصل عمله وقبل أن يرحل أمسك بتلك الورقة المغتربة وهم بقرائتها.

" عزيزي القاريء..

لن أسألك عن حالك، يكفى ما أنا به فلست بحاجة لسماع المزيد من البؤس فيكفنى ما حييت، أما بعد.. سمعت من قبل أن الله يمكن أن يرسل لك أحد لا تعلمه ينجيك من الهلاك، فإذا كنت أنت مُنقذى فسوف تنل الثواب من الله وليس منى، أما إن تجاهلت هذا وألقيت بهذه الورقة بالقمامة فلا بأس من خذلان جديد يشنق قلبى، لكن عليك أن تعلم أن الحياة أصبحت تضيق على يومًا تلو الآخر، فروحى تحتضر هنا وطفح الكيل منى هذه المرة. "

إنتهى من قراءة الكلمات ثم وجد بأسفل الورقة رقم هاتف وليس أكثر من هذا.

إبتلع ريقه من الخوف وأخذ يقرأ الورقة من جديد على أمل أن تتبدل كلماتها من التعاسة إلى السعادة، ظل هكذا بملامحه الخائفة المتعجبة لما قرأهُ حتى ترك الورقة بيد مرتجفة، وزفر بشدة وهو يمسح وجهة من كثرة العرق، أغمض عينيه سريعًا وكأنه ينفصل عن الواقع وضغط بقدميه بشدة على الأرض ثم بدأ عقلة يؤرقه كالعادة متسائلًا:

-ماذا ستفعل؟ من صاحب هذة الرسالة؟ ربما تكون فتاة فالفتيات هن من يتبعون ذلك الأسلوب بالتعبير عن أحزانهم أو ربما يكون شاب عجز عن

الحديث فكتب هذا، تري أين يوجد صاحب هذه الرسالة الآن؟ هل أصبح فى تعداد الموتى ضمن قائمة المنتحرين أم واصل حياته بروح منتحرة، ربما تكون هذة كتابة عابرة وليس أكثر، فالكتابة دواء تشفى أوجاعنا، تجعلنا نتوقف عن البكاء وتلملم حُطامنا بين سطورها، وتسمع منا مالم نبوح به لنصبح أقل حزنًا مما كنا عليه.

-هيا بنا!

انتفض من مكانه حينما قاطعة صديقة بتلك الجملة لكى يرحلوا، فجمع ما تبقى من أعصابه وأخبره بأنه لن يرحل الآن.

لم يريد أن يسلم نفسه إلى عقلة مرة أخري، فحينما يفعل المرء هذا فيكون الجنون هو نهايتة المحتومة، أمسك بهاتفه ليطلب الرقم المتروك أسفل الرسالة.

جرس ثم جرس ثم جرس ثم صوت يقول:

-لقد تأخرت كثيرًا، لكن لا بأس هذا هو القدر وهذه هى الحياة، دومًا الأشياء الجميلة تأتى متأخرة بعد أن تدهسنا الحياة فيختفى شغفنا إتجاهها ويبقى الحال كما هو عليه، على أى حال سأنتظرك بالعاشرة مساءً فى ذلك العنوان الذى سأرسله لك عقب إنتهاء المكالمة.. وداعًا.

أغلق الهاتف بوجهه قبل أن يعرف هوية المتحدث، حاول الإتصال مرة أخرى لكن دون جدوي، فقد أغلق الخط عقب إرسال العنوان، فشعر بشيء من السخط لما حدث.

كثيرًا ما تفاجأنا الحياة بأشياء لا نعلم مصدرها، بدون مقدمات أو دون إنذار مسبق يظهر أمامنا، تقترب منا وكأنها تعرفنا منذ زمن، منا من يفر هاربًا رافضًا تقبل أشياء لا يعلم مصدرها، ومنا من يركض طوال حياته خلف هذه الأشياء حتى يكتشف علة ظهورها بحياته وهنا تبدأ المتعة أو المشقة، أعني هنا تبدأ المغامرة.

جاءت الساعة العاشرة ووصل إلى العنوان الذى ترك أسفل الرسالة ليجد نفسة أمام عمارة كبيرة، وقف ينظر متحيرًا فهو لا يعلم إلى أي طابق سيتجة، وإذا بضوء عال يصدم بعينة من جهة اليسار، اتجه ناحيتها بعد أن أدرك بأنها هى العنوان وليست العمارة.

خطوات قليلة تفصله عن المجهول خطاه مرتجف، لكنة تجاهل خوفة هذا واضعًا أمامة شيء واحد فقط ألا وهو المغامرة، فالخوف لا يجدي نفعًا سوى الموت بالبطئ، أما المغامرة فهى الحياة.

انطلقت السيارة بعد أن ركب مباشرة، ظلوا صامتين ولا شيء سوي صوت الموسيقى الإنجليزية التى تخرج من الكاست.

توقف السيارة ثم نزلوا فوجد نفسه بأجمل مكان بمصر، مكان يسعك مهما كنت حزين أو سعيد، مكان تشعر به بأنك تنظر على القاهرة من السماء، فلا ترى منها سوى أضوائها المختلفة، المنظر من هنا يؤكد أن الأشياء كلما ابتعدت عنها زادت جمالًا وكلما اقتربت زادت قبحًا وسوءً، كل هذا ستشعر به وأنت جالس فوق جبل المقطم.

جلسا بمكان بعيد عن من حولهم حتى يمكنهم الحديث بأريحية، جلست شاردة مدخنة، بينما أخذ يراقبها وينظر لها من أعلي إلى أسفل، فقد كانت بدينة بعض الشيء لكنها جميلة، كانت جميلة للدرجة التى تجعلك عاجز عن وصفها وتكتفى فقط بالنظر إليها ، كانت جميلة للدرجة التى تجعلك تتخلى عن مبادئك وأفكارك وتعتنق جسدها.

انتهت من التدخين ثم أخرجت من حقيبتها زجاجة كحول، ارتشفت القليل منها حتى تتمكن من تعرى روحها أمامه، أراحت ظهرها إلى الخلف وأبرزت صدرها للأمام لتظهر أنوثتها والتفتت إليه وبدأت الحديث مداعبة له قائلة:

-لم أكن أعلم أن حظى هذه المرة سيكون أنيق وجميل هكذا.

أجابها بلؤم قائلًا:

-ولم أكن أعلم أن المغامرة ستكون مثيرة هكذا.

ضحكت من خبث نواياه التى أدركتها ثم ارتشفت المزيد من الكحول، تركها بمجلسها وذهب يحضر فنجان قهوة فالصداع كاد أن يفتك به، عاد سريعًا إليها فوجد زجاجة الكحل فارغة، ارتشف القليل من القهوة ثم أشار بأصبعة إتجاة الزجاجة قائلًا:

-كل منهما مخدر، لكن القهوة مخدر رخيص مباح، تجعلك تتقبل عفن الواقع بصدر رحب.

أخذت القهوة من يده وارتشفت القليل منها لعلها تشعر بما تفوه به ثم قالت بإستهزاء:

-ما هذا! حقا الحياة رائعة، ليتنى تناولت القهوة من كثير.

ضحك هو من طريقتها الهزلية وواصلت هى قائلة بجدية:

-القهوة ما هى إلا مشروب، فلا هى مخدر ولاشيء آخر، فقط الكتاب والشعراء هم من صوروا لنا ذلك التصور السخيف، فقد بالغوا بوصفها وبإعطائِها قيمة أكبر من حجمها، والبلهاء مثلك هم من آمنوا بتلك الأفكار الساذجة، فالأقويا يا سيدى لا يحتاجون القهوة لتقبل عفن الواقع، بل يقدمون على ذلك العفن بعقول ناضجة وقلوب قاسية.

ضم يده إلى صدره بعد أن فرغت من حديثها ثم تسأل قائلًا:

-ما بكِ!

أخرجت الزجاجة الثانية من حقيبتها حتى تتمكن من الإجابة عن تسآله، همت بفتحها ولكنها تناولت الكثير منها تلك المرة، استنشقت الكثير من الهواء وهى تنظر للقمر شاردة فى أحزانها وآلامِها التى أمضت حياتها تسعى جاهدة لنسيانها لكنه لم يفلح الأمر أبدًا، لم ترد أن تضيع وقت أكثر من هذا وتفوهت قائلة:

-أدعى حياة وأنا والحياة خطان مستقيمان لن نلتقى أبدًا.

ابتسمت ساخرة لما تمتمت به ثم تابعت قائلة:

-لم ترضَ الحياة عنى يومًا، فقد طعنت قلبى ثلاث طعنات مفجعة حتى هلك قلبى، وأكلمت الحياة وأنا أتوهم بأننى حية ولست جثة لم يؤذن بموعد دفنها.

نظر لها بملامح حزينة لما سمعه وقبل أن ينطق بحرف سبقته هى قائلة:

-أرجوك لا تقاطعنى، احتفظ بتسائلاتك لنفسك، وأيضًا احتفظ بنصائحك لروحك، فنصائحك لن تغير شيء لأن الزمن لا يعود بنا إلى الخلف، دعنى أتحدث وما عليك إلا الإصغاء لى.. الإصغاء فقط.

أوم برأسه موافق ثم عبثت هى بأناملها بخصيلات شعرها متألمة لكنها تظاهرت بالثبات أمامه قائلة،

-الطعنة الأولى.

أمى.. أمى كانت الطعنة الأولى، فحينما جئت أنا إلى الحياة رحلت هى، وآه على من يحيا الحياة دون عناق من أمه، أو لمسة من يدها تشعره بالأمان مرة أخرى، ذات يوم سألت أبى ببراءة الأطفال قائلة: لما لم تأتى أمى كى ترانى حتى الأن؟ أمسك هو بيدي الصغيرة وهو يشير بيدة ناحية السماء قائلًا:

" الأنقياء لا يسكنون الأرض بل منازلهم بالسماء لن نلتقى بهم إلا حينما يأذن الله بهذا، لكن دومًا ما نراهم بأحلامنا "

أنهت الطعنة الأولى وظلت صامتة.. فـ فراق الأم ليس هين ولو تعلمون. أمسكت بزجاجة الكحل وتناولت ما بها حتى فرغت تماما، ثم نهضت من مجلسها ناحية السيارة وبقى هو بمكانه، مضت بعض الدقائق وعادت هى لكنها عادت شبه عارية فقد تركت بعض من ملابسها بالسيارة، نظر لها متعجبًا وعاد الخوف يتبعه فأخذ ينظر يمينًا ويسارًا يتفقد المكان من حوله

فلم يجد أحد بجواره، أما هى فكانت واثقة مما فعلت ولم تلتفت حتى خلفها وكأنها جاءت هنا كثيرًا وتعلم المكان جيدًا.

قامت بتشغيل الموسيقى بهاتفها فالوضع كان بحاجة لها، فالموسيقى دواء لكل روح خانتها الحياة، وبدون مقدمات بدأت فى نوبة ضحك هستيريه نتيجة الكحولات التى تناولتها، كانت تضحك بصوت مرتفع حتى تغطى على صوت آلامها، أخذت تضحك من الخيبات التى لحقت بها واحدة تلو الأخرى، فقد كانت تنزف ألم من الداخل لكنها ادعت الثبات أمامه، فكانت على يقين أن الضحك لا يزيل الألم لكنه يجعلنا نغفل عنه.

إنتهت من الضحك، ثم هدأت مرة أخرى وعادت إلى هدوئها قائلة:

-الطعنة الثانية.

أصبحت فى سن العشرين، فتاة جميلة، تدور حياتها بين الجامعة والبقاء بجوار والدها والثرثرة مع ابن عمها، ابن عمى هذا كان يعنى لى كل شى فقد كان أخى ورفيق دربى بالحياة، كان يكبرنى سنًا، كان هو الأمان بالنسبة لى، بأحد الأيام تكاسلت عن الذهاب إلى الجامعة وطلبت منه بأن ياتى يجلس معى حتى يأتى والدى من العمل، تخيل ماذا؟! لا أعلم كيف ومتى، لكن مرة واحدة ونحن سويًا وضع يدة على جسدي، ظننت أنه يداعبنى فأزحتها عنى، لكنه وضعها مرة أخرى وبين ثانية ودقيقة أصبحت فتاة فاقدة لعذريتها دون زواج شرعى.

لم يتمكن من الصمت أكثر من هذا وانفعل قائلًا:

-كيف؟ أين عقله؟ فقد كان أخًا لكِ فكيف فعل هذا؟

أجابته مبتسمة غير واعية وهى تشير ناحية السماء:

-الأنقياء لا يسكنون الأرض بل منازلهم بالسماء.

أكمل بنفس لهجتة الغاضبة متسائلًا:

-وماذا فعلتى؟

أجابته وهى ترفع كتفيها إلى أعلى قائلة:

-لا شئ، كنت خائفة فإلتزمت الصمت.

-ولما الخوف..؟

أجابت بكل ثبات وحزم:

-لأننا مجتمع عاهر بأفكاره، دائمًا ما ينظر للمرأة على أنها جسد ليس أكثر من هذا.. لذا كان من الصعب أن يصدق أحدهم أن حواء بريئة هذه المرة.

اقتربت منة بشدة فجعلته يرتبك ووضعت قبلة على جبينه، ثم اتجهت ناحية السيارة مرة أخرى، عادت ولكن ليس كالمرة السابقة بل أسوء، فعادت إلية متحررة، عادت إلية عارية تمامًا كما ولدتها أمها، لم تدع له فرصة للإستعجاب أو الإلتفات حوله وأشعلت لفافة تبغ ثم قالت:

-الضربة الثالثة.

أعتزلت الحياة من بعدها وبقيت بغرفتى، فيكفى ما رأيتة منها، لكن الأحزان تعرف صاحبها جيدًا يا صديقي فتتبعهم دائمًا حتى لو كانوا ببطون أمهاتهم، فقد توفى أبى.

ألقت باللفافة بعيدًا عنها فلم ترغب فى إنهائها، ثم زفت فى ضيق وهى تواصل قائلة:

-مضت الأيام وأصبحت وحيدة، مضت الأيام وجاء ابن عمى لزيارتى مرة ثانية، لكن هذه المرة طلب ما هو أقذر، طلب أن أعمل بملهى ليلي وألبى للزبائن رغباتهم مهما كانت مقابل الأموال تمكنى من الحصول على كل ما لذا وطاب، وقبلت.

لم تظهر على ملامحه التعجب كما كان من قبل وظل ثابت الملامح، فنظرت له هي قائلة:

-قبلت ليس من أجل المال، فالأموال لا تبقى على أى حال، لكنى قبلت لأننى أدركت أن الحياة حتمًا ستدهسنا فعلينا أن نختار الأشياء التى ندهس من أجلها، واخترت أنا طريق فتايات الليل، وقررت أن أحيا بجسد وليس بروح، فأصبحت كما ترانى عارية متحررة حتى من روحى المتألمة.

واصلت بروحها المتألمة قائلة:

-الورقة التى وجدتها أنت كتبتها قبل أن أقرر السير بطريق الليل، كتبتها وأنا كالغريق الذي يستنجد بقشة تنقذة من الهلاك، كتبتها على أمل أن يهاتفنى أحدهم فأتراجع عن هذا السبيل، لكن خاب أملى الأخير بأن تنصفنى الحياة.

نهضت من مقعدها ثم اقتربت منه وهى تهمس بأذنه قائلة:

-إياك والخوف.. إياك والخوف.. إياك والخوف، فالخوف قاتل.

ابتعدت بعض الخطوات وصرخت بصوت عال قائلة:

-أنا الآن بلا عائلة، بلا رفيق أو حتى حبيب.. أنا الآن امرأة فارغة، أنا الآن بائعة هوى، بائعة هوى فقط.

اتجهت ناحية مرة أخرى وحملت حقيبتها ووضعت قبله على جبينة للمرة الثانية ثم ألاحت له بالوداع فهى لم تعد بحاجة له الآن فقد جاء متأخر.

ناردين..

لكل مكان رونقة الخاص، فهنالك أماكن تجعل السعادة تزور قلبك من قبل أن تذهب إليها، وهنالك أماكن تشعر بالحزن الشديد حين تتذكرها دون أن تزورها، لكن المكان الوحيد الذي يجمع بين هذان الشعورين المتناقضين تمامًا، يجمع بين الضحك الشديد والبكاء القاتل.، بين اللهف والشوق والبرود واللامباة فى آن واحد، بين عناق العودة وعناق الرحيل، بين الفراق واللقاء، واحدة من هذه المشاعر تنتاب قلب كل من يتواجد به، كل من يجلس هنا في صالة الإنتظار بالمطار.

بالمطار تجد علي اليمين رجل يبكي فرحًا بعودة ابنه الوحيد بعد غياب دام لسنين فى دول الخليج، وعلي اليسار تجد مشهد أخر علي النقيض تمامًا تجد أم يتمزق قلبها على رحيل ابنتها الوحيدة إلى الأبد مع زوجها إلى بلاد ما، لكن أبأسهم وأكثرهم شقاء هذه الذي تاتي يوميًا تحتسي قهوتها منتظرة قدوم حبيبها كما وعدها، تأتي كل يوم تنتظره دون أن تكل أو تمل، لكنه لم

ولن يأتى أبدًا لأنه رحل عن الحياة بأكملها قبل أن يعود لها بيوم لكن عجز قلبها عن استيعاب هذا وتوقف عقلها عن مواصلة الحياة عقب هذا، تأتى على أمل العودة مرة أخري لكنها بلا جدوي ترحل وحيدة كما جاءت.

من بين كل هؤلاء الأشخاص وكل هذه المشاعر المختلطة يجلس هو علي أحد المقاعد منعزل عن العالم بالموسيقي التي تغمر أذنيه، جالسًا مرتديًا سروال رمادي اللون وقميص أسود اللون، تلك هي عادته بسيط الملابس لكنة أنيق المظهر دائما وجذاب.

السعادة تملئ صدره، فقد مضى الكثير ولم يتبقي سوي دقائق ويلتقي بصديقه، بالرغم من أنه سيبقى بمصر القليل من الأيام ويسافر مجددًا إلا أنه متلفهًا لرؤيته ولو ساعة واحدة فقط.

-تعلن هيئة الخطوط الجوية عن قدوم الرحلة رقم ثلاثة القادمة من إيطاليا.

كانت الموسيقي بأذنه مرتفعة لكن ذلك الصوت كان مرتفعًا أكثر منها، فنهض من مكانه والإبتسامة علي وجهة وأخذ يبحث بين الوجة القادمة من الرحلة عن وجة صديقه، ظل يبحث عنه حتي وجده وكانت هي اللحظة المنتظرة.

رغم كونة قضي خمس سنوات خارج مصر إلا أنه مازال يحتفظ بالملامح المصرية العربية الأصيلة، مازالت بشرتة بنية اللون وشعرة أسود داكن يزين وجهه شارب ولحية خفيفة بعض الشيء.

-أود أن أبرحك ضربًا على كل هذا الغياب لكن سأتغاض عن هذا لكوني أفتقدك.

قال هذا وهو يعانقه، فقد كان ينتظره علي جمر من نار وها قد وصل فلا داعي للعتاب.

-أقسم لك أنني أفتقدك أكثر يا صديقي.

-لا تتفوة أكثر من هذا يا أحمق أنت، دعنا نرحل من هنا فـ رأسي علي وشك الإنفجار من كثرة الضوضاء، دعنا نرحل فـ مصر تنتظرك بالخارج.

أمسك بعض الحقائب منه فقد كانت ثقيلة بشكل مبالغ به للدرجة التي جعلته يظن أنه واضع بها شيء أخر وليس ملابس خفيفة فنظر له قائلًا وهو يضعها بسيارته:

-متفجرات هذه أم ماذا؟

ضحك هو لخفة ظله التي لم تتغير أبدًا قائلًا:

-لا شئ فهذة أنتيكات كلاسكية لم أتمكن من تركها هناك، أردت أن أحتفظ بها هنا.

-مازالت مهوس أنت بجمع الأنتيكات مهما كلفك ثمنها يا صديقي.

نظر له قائلًا وهو يركله فى كتفة:

-هذه هي هوايتي المفضلة، فلا مانع أن أنفق كل ما لدي بمقابل الحصول علي أنتيكة ما وخاصة لو كانت نادرة، لهذه الأشياء رونق خاص لن يدركها العاديون مثلك أنت، الأنتيكات تجعلنى أحيا حياة أهواها، مصر الفرعونية، فرنسا بالسبعينات، أروبا فى أزهى عصورها، رؤية الأنتيكات تجعلنى أبحر عبر عصور مختلفة وأنا ثابت بمكانى.

أخذ يضغط على الكلاكس حتي يتحرك من أمامه قائلًا بسخرية:

-الطبيب الأنتيكة يجلس بجواري.

-لم تتغير مازلت أحمق تافه حتى وأنت بالثلاثين من العمر.

ضحكا سويًا وأخذ كل منهما يسخر من الأخر وهما بطريقهم إلى المنزل، لكن الطريق كان مزدحمًا كعادته، لو وجدت الطريق فارغ والسيارات تسير بهدوء أعلم أنك لست بالقاهرة، فالضجيج والإزدحام واحدة من أهم مميزات القاهرة، أين يوجد هذا الذي زار القاهرة ولم يفكر بالإنتحار؟ حقا فهذه ليست مبالغة مني أقسم لك، القاهرة لوحة كئيبة بكل تفصيلها، لذا رفق الله بنا وزين مصر بمدينة الأسكندرية، بالأسكندرية تجد سوى السكينة والبهجة التي لم ولن تخلوا منها أبدًا، يكفي أنها عروس البحر، من وجهة نظرى أن القاهرة شاب عشوائي فوضوي بالعشرين من العمر أما الأسكندرية سيدة بالأربعين شقراء أنيقة، فالأسكندرية لوحة لطيفة يروق لها القلب بكل تفصيلها.

-ها قد وصلنا إلى المنزل.

تفوة بهذا بعد أن أهدر بعض الساعات بالطريق رغمًا عنه، دخل الصديقان إلى المنزل وترك الطبيب يرتاح من مشقة السفر باليوم الأول وبنهار اليوم الثاني جلسوا بالمنزل حتي حل عليهم الليل وعزموا على الخروج للتجول بشوارع مصر التي اشتاق إليها الطبيب.

-ولو زورت مائة بلد ستظل مصر هي موطني وبلدي الأقرب إلى قلبى.

-ثم ماذا؟

-لم يرحل أحد عن مصر إلا واشتاق بالعودة لها مرة أخرى، حتي ولو تركها بكامل إرادته حتما سيأتي يومًا سيشتاق إليها ويتمنى أن يعود لها مرة أخري، فمصر لها سحر خاص لا يمكن لأحد التخلص منه.

قطعه الأخر قائلًا متشائمًا:

-أنت لم تخطئ أيها الطبيب، فمصر لها سحرها الخاص، لا يشبهها ولا تشبه دولة أخرى ، فريدة من نوعها هى، وحدها مصر من تلد المبدعين والمفكرين وأيضًا وحدها من تؤدهم أحياء، تلقى بهم ناحية الجحيم بحجة العادات والتقاليد، بحجة أن الأحلام لن تجعلك تحصل على لقمة العيش.

تنهد قائلًا بإنهزامية:

-أدعو الله كثير أن ينجني منها، أدع الله كثير أن أظل أدمى فى ظل ظروف وأحداث تجرد البشر من أدميتهم وتجعلهم حيوانات مفترسة متوحشة.

أنهى حديثة مداعبًا قائلًا:

-ربما هى ماء النيل التي إرتويت منها قبل أن ترحل، هي السحر الذي تتحدث عنه.

لم يتمكن من التعاطف معه بسبب خفة ظله هذه فنظر لها بإستهانه قائلًا:

-لا يا خفيف الظل، لكنها الغربة، الغربة التي تنهش بقلب كل مسافر بالبلاد البعيدة، أنت لم تذوق مرارة الغربة، لم تجرب يومًا أن الحياة تضق بك فلا تجد أحد تشكو له، ولكونك غريب هناك فلن يلتفت أحد لأمرك.

تنهد ثم أكمل..

-بالخارج يا صديقى وخاصة الدول الأوربية تجد الأشخاص تشبة بلادهم، سكان إيطاليا مشاعرهم باردة مثل أجوائهم، علي عكس سكان مصر فتجد مشاعرهم متنوعة مثل أجوائهم تمامًا ، من وجهة نظري التي لن يكترث بها أحد غيرك، مصر هي البلد الوحيدة التي لا تعرف الغربة طريقًا لها، فكل سكانها بالرغم من إختلاف ألوانها ومعيشتهم إلا أنهم أبناء شعب واحد لا يعرفون الوحدة، والله لو كنت قادم من كوكب أخر سيتعرفون عليك ويجعلونك واحد منهم حتي لا تزور الغربة قلبك.

ضحك الأخر قائلًا:

-صدقت.. فنحن بمصر لا نعرف شيء عن الخصوصية، هذه الكلمة لم ترد بقاموسنا بعد.

ضحكا هما الاثنان حتي وصلا إلى مقهي أم كلثوم بحى الأزبكية، جلسة واحدة بهذا المقهي تكفي أن تزول عنك أحزان العالم بأكمله، فهنا صور وصوت أم كلثوم فى كل ركن بالمقهي وهذا يكفي، صوت أم كلثوم لم ولن يتكرر أبدًا، لديها سحر خاص بأحبالها الصوتية تجعلك تطير فوق السحاب حين تطرب هي، أم كلثوم لم تمت أبدًا، فصوتها مازال خالد فى أذن كل عاشق ولهان.

أم كلثوم حالة فريدة من نوعها، ساحرة.. قادرة أن تجعلك تحيا حياة سعيدة وهي تدندن قائلة:

' وافتكرت فرحت وياك قد إيه..'

ومن ثم ينقلب السحر علي سامعة بتحوّل تلك اللحظة إلى حياة سوداء تعيسة، وهي تتابع قائلةً بمنتهى الحزن:

' وافتكرت كمان يا روحي بعدنا ليه..' .

أم كلثوم أنتيكة لن تكرر مرة أخري، أنتيكة مازالت محتفظة بجمالها الكلاسيكي الهادي.

-هذا المكان الذي حاولت أن أجد شبيه له بإيطاليا بالأحساس الذي شعرت به الآن لكن لم أجد، فـ أم كلثوم بنت مصر فقط.

ضحك الطبيب وهو ينفخ دخان سجائرة وهو يميل برائسة يسار ويمين مع الموسيقي وتابع ضاحكًا:

-مقطوعة أخري يا ست فأنا قادم لك من إيطاليا.

لم يتمالك صديقة نفسه فانفجر ضاحكًا ثم قال:

-والله صدق يا ست، فهو حقًا قادم لك من إيطاليا.

هنا فقط طربت الست قائلة:

(بعيد عنك حياتى عذاب.. بعيد عنك..)

إبتسم الطبيب وكأن أم كلثوم ذكرته بأحدهم، فقطعه عن خياله قائلًا وهو مبتسم نصف إبتسامة:

-من هى؟

أجابة متسرعًا والإبتسامة مازالت على وجهه:

-ناردين.. هي ناردين، الرحمة التى من الله على بها.

فرفع هو حاجبه متعجبا من حديثه الذي يشبه حديث الشعراء متسائلًا:

-من ناردين؟ كيف تكون؟ أعني ماذا تشبه؟

أجابة بنبرة مسترخية:

-تشبة كل ما هو كلاسيك وأنيق كالجرامافون.. القهوة.. الموسيقي الفرنسية.. أغنيات أم كلثوم التى تغنتها بالحب.

ثم واصل وهو ينظر للنجوم بالسماء قائلًا:

-وأما عن شكلها، فكلما أرها أبتسم قائلًا:

" سبحان الخالق الذي أبدع وأحسن خلقه "

فهي جميلة للدرجة التي تجعلك تظن أن آدم لم يخطئ أبدًا، كلما رأيتها أظن بأنني أسكن الجنة لا الأرض.

أشعل آدم لفافة تبغ قائلًا:

-تعافيت أنت سريعًا من حبك الأول.

نظر له الطبيب بسخرية قائلًا بجراءة:

-ومن قال هذا؟ علي العكس تمامًا فقط هلك قلبي فى فراق أول فتاة أحببتها، حينما رحلت عنى بحجة أنها لم تعد تشعر بالراحة معى.

ضحك ساخر من الذكريات التي مرت أمام عينه ثم واصل قائلًا:

-قدمت لها كل ما لدي وحاربت العالم من أجلها ثم أتت هي قائلة:

" اعذرني فلا يمكننا أن نكمل أكثر من هذا فأنا لا أشعر بالراحة معك " قالت هذا وانفطر قلبي وتوقف العالم من حولي وشعرت بأنني كنت أحلق بسابع سماء لكن سقطت مرة واحدة دون إنذار مقدم، سقطت ويتردد فى أذني جملة الفنان الأعظم محمد منير وهو يغني قائلًا " أنا طفل إتعلق بيكي فى نص السكة وتوهتية " كنت أظن أنني لن أتعافى من حبها، لكن نجوت منه، لملمت حطام روحي وبقايا قلبي ونهضت مرة أخري وألتقيت بـ ناردين ، فكان لقائي بها هو بداية حياة لى.

-كيف كان القاء؟

إرتشف القهوة التي أحضرها النادل أخيرًا بعد أن لبى الكثير من الطلبات التي كانت متراكمة علية أجابه قائلًا:

-صدقني لا أتذكر أين وكيف إلتقينا، لكن صدقني لقائها لطف من الله بقلبي الصغير.

ضحك هو من طريقته التي يتحدث بها فقد كانت جديدة عليه ثم رفع عينه ويده إلى السماء داعيًا قائلًا:

-اللهم أرزقنا حب مثل حبه لناردين.

رفع الطبيب يده إلى السماء قائلًا:

-اللهم آمين.

إنتهيا من الدعاء من هنا وأضاء هاتف الطبيب من هنا معلن عن إتصال أحدهم، فنظر لشاشة الهاتف ليجد اسم ناردين يزينه، فنظر له مبتسمًا طالب من أن يحضر الحساب فقد حان وقت الرحيل، وأجاب قائلًا:

-جئت بموعدك كعادتك.

إبتسمت هى قائلة:

-كيف حالك؟

-تظني كيف حالى في بعدك أيتها الجميلة؟

ضحكت ثم تابعت المكالمة قائلة:

-سأنتظرك بالمطار غدًا.

صمت هو لبعض ثواني وبدون مقدمات يسأل:

-أعلم أنك تحبيني لا خلاف على هذا، لكن لما؟

-لما ماذا؟

-لما أحببتني يا ناردين؟

عبثت بأناملها في خصيلات شعرها وهي تجيبه قائلة:

-أقسم لك أنني لا أعرف، كل يوم كان عقلي يسأل قلبي ذلك السؤال، لكن دون فائدة يبقي قلبي صامت كعادته، فأنا لا أمتلك سببًا واحدًا لحبك، لكن أمتلك مائة سبب للبقاء معك، يكفي أن أطمئن قلبى معك بعد نوبات خوف متكررة كادت أن تهلكة منذ زمن، أعتقد بأن هذا هو الحب الصادق، أن تحب دون سبب أو علة، فالحب الذي يتبعة سبب يفقد جماله.

ثم ختمت حديثها قائلة قبل أن تنهي المكالمة:

-أظن أن الله لمس قلبي حين التقيت بك.

إنتهي آدم من الحساب ثم عاد إليه مرة أخري قائلًا:

-ما بك أيها العاشق الولهان؟

أجابه قائلًا:

-دعنا نتسابق بالجري.

-بالجري!

لم ينتظر الطبيب حتي يسخر هو منه وانطلق كالريح، أخذ يجري بين الناس غير مباليًا بهم فاتبعه الآخر سريعًا وأخذا يجريان كـ أطفال وليس كرجال ناضجين.

صباح اليوم الثالث..

وصل الاثنان إلى المطار وتبدلت مشاعره عن المرة الأولي فشعر بالحزن على رحيل صديقه مرة أخري لكنه كان سعيد للغاية بهذان اليومين الذي قضوهم سويًا، ودعه وداعًا حار موصيه أن يعود لمصر مرة أخري لكن المرة القادمة يأتي هو ونادرين سويًا، رحل الطبيب إلى الطائرة وخرج آدم من المطار وهو يحدث نفسة قائلًا:

-اللهم امنح صديقي سعادة فوق سعادته، فقلبي فرح به وبما أصبح عليه الآن، فقد كنت أظن أن لن أراه يبتسم مرة أخري لما كان عليه، فالحزن كان طافح على وجهه بما يكفي، لكنه الحب يا سادة، الحب هو الذي يضيئنا

مرة أخرى مهما انطفت أروحنا وذبلت قلوبنا، الحب شعور لا مثيل له، الحب يجعلك تتقبل كآبة الواقع وقبح الحياة، الحب يجعل الحياة لينة على قلبك، فمهما ضاقت بك الحياة يكفي نظرة واحدة في عين من تحب.

أخذ ينظر لوجه المارة بالطريق وكأنه يحدثهم قائلًا:

-حبوا أيها البشر، فالحب يجعل الحياة حياة وليست جحيم، لكن حبوا حب صادق، حب مثل حب الطبيب وناردين.

ثم أخذ يدندن بصوت عالٍ وهو يقود سيارته قائلًا:

" يالي ظلمتوا الحب وقولتوا وعدتوا عليه، قولتوا عليه مش عارف اي! يا العيب فيكوا يا فحبايبكم، أما الحب يا روحي عليه.. يا روحي عليه.. فى الدنيا مفيش أبدًا ابدًا أحسن من الحب.. يا سلام علي الدنيا وحلوتها في عين العشاق.. يا سلام.. يا سلام على حلوتها يا سلام.. يا سلام "

كل دا كان ليه..

وها قد عاد أخيرًا إلى منزله بعد يوم شاق من أيام الحياة، أغلق الباب خلفه، وألقى بمفاتيحه بعيدًا على أمل ألا يجدها مرة أخرى، فيقضي باقي أيامه بين جدران ذلك المنزل.

منزل هادئ، تغمره المصابيح ذات الإضاءة الخافتة، منزل لا يعرف ما هي الشمس، لكنه يعرف جيدًا القمر والنجوم، منزل صاحبُه ملّ البشر وملّ التعامل معهم.. حتى ذاته ملّ منها هي الأخرى.

جلس على الأريكة بعد أن تحرر من بعض ملابسه، وبهدوء قال:

-مرحبًا يا أوزيل، مضي وقتًا طويلًا لم نلتقي به.

-لما الخمور حرام؟

لم ينزعج من تلك اللامبالاة التي يعامله بها، فهذا هو أوزيل، ذلك الرجل الذي يبلغ الأربعين من العمر، تزين وجهه لحية تشبه لون شعره.. كلاهما

أسود اللون، ويتوسط وجه عينان عسليتا اللون وأنف وشفاه صغيرة، أسفل عينه اليمنى حسنة صغيرة تزين وجه صاحب البشرة الخمرية اللون، دومًا يرتدي خاتمًا في إصبعه –البُنصر–بيده اليسرى، وآخر مثله في يده اليمنى.

هذا هو أوزيل.. رجلٌ يعيش بمفرده يسكر ويلهو.. لا يشغله شيء بالحياة سوى أحزانه.. سعادته.. راحته.. عالمه.. لا يشغله سوى روحه.. رجلٌ مهما فقد بالحياة يُنكر ذلك ويدّعي أنه هو من تخلى عنه.. رجلٌ دائمًا يضحك ويسخر من الحياة والظروف.. رجلٌ النرجسية تجري بروحه كما تجري الدماء بعروقه.

شرد الآخر هو يحدث عقله قائلًا:

–ليتنى أستطيع أن أواجه العالم كما تواجهه أنت يا أوزيل.

سرعان ما عاد من شروده على صوت أوزيل الغليظ قائلًا:

–دائم التفكر أنت، وأكثرهم تفكيرًا هو أكثرهم حزنًا وأسرعهم جنونًا.

لم يلتفت إلي حديثه وزفر بشدة علي أمل أن تزفر منه أحزانه ثم أجابه قائلًا برتابة:

–الخمور تذهب العقل، وكل ما يذهب العقل حرام.

إبتسم بسخرية لسطحيته وملأ كأسه بمزيد من الكحول متسائلًا:

–ولما غياب العقل عن الواقع حرام!

أجابة متسرعًا:

-لأنه يجب أن نكون على إتصال بالواقع دومًا، أعني أنه يجب أن نكون مدركين بما حولنا.

رمقه بإستهزاء وأكمل:

-وليس سُكارى بلهاء.

هنا نهض أوزيل من مقعده وأخذ ينظر له وهو يضحك بصوت عالي، للدرجة التى جعلته يضحك هو الآخر ولا يعلم لماذا؟ لكنه إنفجر بالضحك مثله، حينما كانوا سعداء وأصوات الضحك تملا جدارن الغرفة، فزع هو علي صوت الكأس يصتدم بالجدارن بعد أن قام أوزيل بإلقائه، تبدلت ملامحه ونظر له ساخطًا ثم إقتربْ منه قائلًا:

-البُلهاء الحقيقيون هم من يسعون للإتصال بالواقع والحياة، لما علينا الإتصال بالواقع أيها الأحمق! أخبرني لما؟

فتح فمه وكان على وشك الرد فأجابه أوزيل مسرعًا وعروقه منتفخه:

-سأخبرك أنا، نحن نبذل قصار جهدنا للإتصال بالواقع لأننا حثاله، عبيد للحياة، نهوي البكاء والحزن، نستقيظ بالصباح الباكر نرتدي ما نرتديه ونصارع الزمن للحصول علي قوت يومنا، ثم ماذا! نجلس نشكو من ضيق الحياة علينا والتعثرات التي تلحق بنا واحدة تلو الأخري، نسعي للإتصال بالواقع لنحصد المزيد والمزيد من الخذلان والفراق، لنرى أحلامنا تحتضر أمامنا ونحن عاجزون عن تحقيقها، لنجد أرواحنا تنزف ألمًا وتعاسة في كل مساء، لننظر بالمرآة فنجد شخص أخر لا يشبهنا لا نعلمه، شخص فرض علينا حتي نضمن البقاء مع ذلك العفن المحيط بنا، نحن

نلتحم بالواقع لنكتشف سوداويته وتسقط أمامنا حقيقته الزائفة، نحن نعيش الواقع لأننا لا نملك رفاهية الرحيل عنه.

إبتعد قليلًا وهو يشير إليه بإصبع الإبهام ثم واصل:

-السكاري الحقيقين هم الذين مازالوا يمارسون الحياة بعد أن دهستهم وجعلت من أرواحهم أشباح تسير علي الأرض ، أما أنا فلست من السكارى بل من الذين قفزوا من السفينه قبل أن تبتلعهم أموج الحياة.

إستدار بظهره ثم أنهى حديثه قائلًا وهو يلوح بيده كأنه يرفرف بالسماء:

-هنا لا واقع ولا حياة، هنا فقط الخيال.

ظل الآخر صامتًا كما كان، ثم جلس أوزيل مرة أخرى لكنه لم يصمت و استفزه قائلًا:

-دعنا نلعب فقد اشتقت للعب معك.

نظر له يونس بملل متسائلًا:

-وماذا سنلعب؟

-لعبة الكومى، سنحضر أربع ورقات من الكوتشينة ثلاث متشابهات والرابعة تكون الكومى، ولكل واحد منا مرة سيقوم بها بتبديل الأوراق سريعًا وهى على ظهرها، والمطلوب أن الطرف الأخر يستخرج الكومى فإن فعل سيسأل الآخر سؤال، وإن لم يفعل يحدث العكس.

-حسنًا موافق.

ظهرت ملامح السعادة على وجه أوزيل، فقد جاءت إليه فرصته التى إنتظرها على طبق من ذهب ليصل إلى غايته المرموقة، نهض من مجلسة وأحضر كأس جديد من الوسكى ووضعه بيد يونس حتى يطيرا فوق السحاب سويًا، وضع على الطاولة الأربع ورقات بعد أن قام بتبديلهم، جلس ووضع قدمًا فوق الأخري وهمس قائلًا:

-تناول الوسكي، واكتشف الكومى.

أنهى يونس كأسه مسرعًا فقد قذف الشغف فى قلبه فجأة، سحب ورقة منهم، لكنها لم تكن الورقة المطلوبة، فنظر إلى أوزيل وهو يضعها مرة أخري على الطالة قائلًا:

-تفضل، السؤال معك.

عبث أوزيل بخاتمه الذى يرتديه بيده اليمني متسائلًا:

-إلى أين ذهب الجميع؟

وقع السؤال كالصاعقة على قلبه فابتسم يونس بحزن وأجاب متحسرًا.

-رحل الجميع عنى.

وضع يده اليسرى على خده وتابع..

-ولم يبقى معى سواك يال تعاسة حظى.

ابتلع يونس مرارة إجابته ورفع حاجبه مشيرًا له بإستخراج الكومى هو الآخر، وبالفعل سحب أوزيل ورقة وأيضًا لم تكن المطلوبة.

ابتسم يونس إبتسامة النصر ثم قال مسرعًا:

-ما هو لونك المفضل؟

ضحك أوزيل لأنه كشف نواياه الخبيثة التى تكمن خلف ذلك السؤال، نهض من مقعده وتحرك خطوات قليلة ثم لمس بأنمله لوحة معلقة على الجدار نصفها رمادي والنص الأخر أسود وبدأت الذكريات تراوده حتى تفوه قائلًا:

-ستحيا حياة سعيدة لو تخلصت من الرمادي وأبقيت بالأسود.

واصل مبتسمًا متاملًا اللوحة قائلًا:

-لم يخطى من سماها أزهار، حقًا فقد كانت زهرة جميلة، تعجبت من إنفتاحها الثقافى رغم كونها صعيدية الأصل، لكنها أخبرتني أنها هجرت الصعيد وتجردت من كل عادتهم وتقاليدهم، ثم جاءت إلى الأسكندرية ورأيتها أنا، مضت الأيام سريعًا بعد لقائنا الأول وأنا على يقين أن هذا الملاك لن يبقي ملاك حتى النهاية وحتمًا سيرتدي ثوب إبليس يومًا ما، عودت إليها مرة أخري، ويالتنى لم أعد.

إبتلع ريقة ثم تابع قائلًا:

-تفاجئت برجل يخرج من شقتها، تعجبت.. فأنا أعلم إنها وحيدة، وحين سألتها أخبرتني وبكل شراسة إنها كانت تمارس معه الجنس ولا تتذكر عدد الرجال التى اقترفت معهم هذا من قبل،. أصبحت تمارس الجنس مع الرجال وهى حاملة لمرض الإيدز دون علمهم، أصبحت تقتل الجميع كما قُتلت هى.

عاد من ذكرياته مسرعًا وأنهى حديثه قائلًا:

-لونى المفضل الأسود لكنى مازلت أحيا الرمادى.

صمت أوزيل لكن ملامحه كشفت عن شعوره بالأسى والحزن عليها وما فعلته، فحقًا لا يوجد بالحياة إنتقام أسوء من إنتقام الصامتون دائمًا، من يرضون بهزائم الحياة بصدر رحب دون أى ردة فعل منهم، وحدهم هؤلاء يصبح الشيطان عاجز عن وصف إنتقامهم حين تتاح لهم الفرصة.

-دورك يا أحمق.

استطاع أوزيل بهذه الجملة أن يبدل ملامحه حتى لا يشمت به الآخر، على الرغم من كونهم أُقرب اثنان لبعضهم البعض إلا أنهم لم يتفقوا يومًا، لكل منهم شخصية فريدة تميزه عن الآخر.

سحب يونس ورقة عشوائية ولكن لم يحالفة الحظ بعد، فرمقه أوزيل نظرة عميقة ثم قال:

-أين صديقك المفضل؟

فتح يونس عينيه وكأن خنجر وضع بقلبه، نهض ناحية الشرفة وأخذ يستنشق الهواء ويفتح قميصة، فكاد أن ينفجر قلبه من كثرة الضيق، فلحقه الآخر سريعًا ووضع على المنضدضة ورق الكوتشينه مبعثرًا ووقف بجواره صامت، وقف يستمتع بالمشهد الدرامى هذا بينما نظر يونس للسماء مبتسمًا قائلًا: وهو يفتح ذراعيه لإستقبال أحدهم.

-صديقى.. ألم تشتاق لى بعد! لقد تعاهدنا على مواصلة الحرب سويًا، لما نفذ صبرك سريعًا هكذا؟ أعلم أنك كنت تحارب وحدك دون أن يعلم رفيق ولا حبيب بمعاناتك.

نظر لـ أوزيل وتابع..

-حينها أخبرتني بأنه لن يستطيع مواصلة الحرب حتى ولو كنت برفقته، أنت محق يا أوزيل فكيف له النجاة وقد أهلكته الأحزان منذ زمن ولم يتبقي منة سوي أشلاء عجزت أنا عن إحيائها مرة أخرى، فازت ظنونك يا أوزيل ورحل هو عن الحياة رغمًا عنه.

فرت دمعة من عين يونس على فراق صديقه وعاود النظر للسماء هو يواصل حديثه..

-وآه يا صديقي من كونك مختلفًا وسط قطيع يشبه بعض.

هذه هى عباراتك يا آسر التى أرددها دومًا بذهنى كلما نظرت إلى صورتك، فقد اختلفت عنهم كثيرًا والإختلاف مميت يا صديقي.

أدار يونس وجهه عن السماء وهو يمسح دموعه، جلس على المقعد مستعيدًا هدوئه، ليبتسم أوزيل بشماته وهو يسحب ورقة لتصبح غير الكومى كالسابقة، فأشار بأصبعه ليونس قائلًا بلا مبالاة:

-السؤال معك.

يسأل يونس بعفويته:

-أخبرنى نصيحة صادقة أمارسها دومًا؟

اقترب أوزيل منه وهو يربت على كتفه وهمس قائلًا:

-إياك والخوف.. إياك والخوف.. إياك والخوف.. فالخوف قاتل.

التفت له الآخر متعجبًا فأكمل أوزيل بنبرة صوت هادئة:

-كنت مشتتًا، فقد تخليت عن عملى كطبيب نفسى للعمل بشركة الإستيراد والتصدير وفقدت حبى الأول أيضًا، فظهرت ورقة مطوية بطريقي، ورقة أدت بنا بالنهاية إلى فراش واحد، كانت تدعى حياة ومن بين ذراعيها تنبع الحياة، كان جمالها مبالغ للدرجة التى جعلتنى أراها عارية وليست حزينة فى كل مرة كانت تنهض بها إلى السيارة لتحضر زجاجة كحل جديدة حتى تتمكن من الحديث، رحلت بعد أن إنتهت من ثرثرتها وتركتني ، رحلت بعد أن تعرت بمشاعرها المكبوتة، بدأت أفكر هل ستعود يومًا إلى تلك الفتاة البريئة التى كانت عليها قبل أن تدهسها الحياة أم ستكمل كبائعة هوى بجسد لا بروح؟ تأكدت من إجابتى حينما عودت إلى العمارة، كانت ليلة من أفضل الليالى التى قضيتها بحياتى، كانت عارية بين يدي وليس خيال، كان مذاقها يشبه مذاق الفودكا، تأكدت من ظنونى من كونها لن تعود بريئة كما كانت حينما شاركتني الفراش وهى مسرورة بذلك دون أن يبدو عليها ملامح الندم أو الحزن لما أصبحت عليه.

ذهب أوزيل ليحضر كأس من الوسكي ويضع عطر منحته له كهدية على تلك الليلة التى سمعها بها دون ملل.

حقا الحياة ستدهسنا كما قالت حياة لذا علينا أن ننتقى الأشياء التى سوف ندهس من أجلها حتى لا ندهس بها.

عاد إليه أوزيل متعطرًا وممسكًا بكأسه وأخذ يغنى بهدوء وسلام نفسي.

جاء الدور على يونس ليسحب ورقة، حالفة الحظ تلك المرة وسحب الكومى، شعر بلذة الإنتصار وسأل:

-أخبرني ما المرة التى شعرت بها بالجنون؟

-هل ستصدقنى لو أخبرتك أنني لم أشعر بالجنون بل رأيته!

ضحك يونس قائلًا:

-كيف حدث هذا؟

-أشخاص لا نعرفهم يعبثون بحياتنا ثم يمضون سريعًا، وتمكنت تلك الحمقاء من فعل هذا بى؟

عصر أوزيل ذاكرته ليستعيد اسمها ثم صاح وهو يخبط كفيه ببعضهم قائلًا:

-رهف.. تلك الحمقاء كانت تدعى رهف.

نوبة ضحك هستيرية أصابت أوزيل حين تذكر اسمها ثم قال بنبرة رفيعة تشبهها:

-أنا أيضًا لا أدخن، لكنى أشعر بأننى بحاجة إلى التدخين معك.

ضحك يونس على طريقته الساخرة، بينما واصل أوزيل بصوتة الغليظ.

-تلك الحمقاء جعلتنى أفقد صوابى، جعلتنى أشك بكونك لست يونس، حينما كانت تنادينى بـ خالد.

لم يتمالك أوزيل أعصابه وانفجر ضاحكًا وتابع قائلًا:

-عدت إلى الكافية بعد مرور الكثير من الأيام فوجدتها تجلس على نفس الطاولة لكن هذة المرة بصحبة خالد الحقيقي الذي رأيته أخيرًا، لم أتفاجئ

لأنه منذ رحيلها وأنا أعلم أنها ستعود إليه مرة أخري، تلك الحمقاء وهمت روحها أنها شُفيت من حبه المنهك ولم تعلم أنها أسرت به مدى الحياة.

عاود أوزيل الضحك ليس على ما حدث فقد كانت ظنونه تميل إلى هذا، لكنه كان يضحك على العبث والفوضوية التى أحدثتها هى بحياتها بتلك الفترة، فهناك أشخاص تأتى من حيث لا نعلم تقتحم حياتنا دون إذن تقلب حياتنا رأسًا على عقب ثم ترحل سريعًا دون إذن أيضًا وتخبرنا أنها سرت بتلك الأيام التى قضتها معنا وفرصة سعيدة التى جمعتها بنا، ترحل وتترك الخراب بقلوبنا، أنانيون هم من يفعلون هذا، لكن كما تدين تدان، فكما يفعلون هذا بنا يأتى أحد آخر ويسقيهم من نفس الكأس فيذوقوا مرارة الخذلان والفراق.

حك يونس رأسه ونسى وهم بسحب ورقة بدل من أوزيل، خانه الحظ ولم تكن الكومى، صمت حتى يستمع السؤال لكن أوزيل فاجأهُ قائلًا:

-من أين لك بكل هذا الصبر؟ لقد مللت من تلك اللعبة السخيفة، دعنا نحضر كأسين من الوسكي فأنا لست بحاجة للعودة للواقع الآن .

-إذا هُزمت يا أوزيل.

تبدلت ملامح أوزيل سريعًا إلى الغضب ثم قال بكبرياء:

-أوزيل لا يهزم أيها الأبله.

نهض أوزيل لكن لم يحضر كأس كما قال، بل عاد وبصحبته زجاجة الوسكي، فوضعها بفمة ثم أنزلها فارغة تمامًا، الآن تجرد أوزيل من الآدمية وكشف عن أنيابه قائلًا:

-ماذا كان مصير تلك الفتاة الرقيقة التى خطف الموت حبيبها؟

تعجب يونس من سؤاله، فكيف تذكرها وهو سريع النسيان! فرفع كتفيه قائلًا:

-بعد الجلسة الأولى والأخيرة بيننا بالعيادة تنبأت أنت بأن إستسلامها للحياة لن يدوم، وبالفعل صدقت، فقد صدمت برؤيتها فى أحد المصحات العقلية والنفسية، وهى تجلس فوق فراشها ومعها فستانها الأحمر وتغنى بصوت عالٍ..

-الحياه بقا لونها بمبي.. وأنا جمبك وأنت جمبى.

مسكينة ليندا يا أوزيل فاز تنبئك وخسر توقعها فى الإعتيادية على الحزن.

حل الصمت فى الغرفة بعد هذا، الإعتيادية على الحزن تدفعنا الى الإكتئاب والإكتئاب يدفعنا ناحية الوحدة الوحدة تجعلنا نفقد صوابنا ونصاب بالجنون.

وكان الدور على يونس بالسحب.. هنا فقط بخ أوزيل سمه فتسأل:

-بما تشعر الأن؟

-ارتجف بشدة من الداخل.

قال يونس هذا ثم نظر ناحية القمر لكن فجعهُ أوزيل وهو ينظر ناحية النجوم.

-لقد كانت جميلة ناردين.

سقط يونس من سابع سماء إلى سابع أرض لكنه تظاهر بالثبات قائلًا:

-لقد كانت أنتيكة نادرة.

تابع بمرارة..

-لم يحبني أحد ولن يحبني أحد كما أحبتني هى.

إنتهز الآخر الفرصة وإنقض عليه بتسأل:

-لما رحلت ناردين يا يونس؟

ظل يونس صامت ثم غادر الشرفة ليتجهة ناحية الجرامافون بالداخل ليضع أسطوانة موسيقية، وهمت الموسيقي تبدء، لحقه الآخر مسرعًا وأمسكهُ من ذراعه حتى ألتفت له وأعاد سؤاله بصوت عالٍ:

لما رحلت ناردين يا يونس؟

تركه يونس وجلس على الطاولة، وأخذ يعبث بورق البوكر بلا هدف على أمل أن يصمت أوزيل أو لا يكرر سؤاله مرة أخرى، لكن لم يمل أوزيل وجلس أمامه وأخذ ينظر الية بشدة، كادت عيناه أن تخرج نيرانًا من شدة الغضب، فهو لا يحب التجاهل أبدًا.. فسحب الورق من يده بشدة وألقهم بوجه، وقبل أن ينطق أعاد عليه سؤاله مرةً أخرى:

أخذ يكرر سؤاله..

-لما رحلت ناردين يا يونس؟ أخبرني؟

أخذ يكرر سؤاله مرات ومرات حتى وضع يونس يده على أُذونيه حتى لا يسمعه لكن لا محالة فقد كان صوته مرتفعًا للغاية أكثر من الموسيقي التى بدأت ترتفع تدريجيًا، صرخ قائلًا:

-اصمت.. اصمت.

-لا.. لا لن أصمت.

-اصمت.. أرجوك اصمت.

طعنة أوزيل قائلًا بصوت مرتفع:

-أنت لعنة، هذا ما قالته لك ناردين قبل الرحيل.

حاول يونس أن يضع يده على فمة حتى لا يتفوه أكثر من هذا لكن لا محالة، وواصل الأخر قائلًا:

-أنت لعنة يا يونس، كل من إقتربْ منك نال الشقاء والهم، أنت لعنة على كل من عرفتهم.

صرخ يونس باكيًا:

-لما أصبحت لعنة وأنا لم أفعل شيء! أنت من تنبأت يا أوزيل وليس أنا، أنت من حددت مصيرهم وليس أنا.

ضحك أوزيل ساخر وهو يقول:

-أنا.. أنا لم أفعل شيء يا صديقي، ربما هى صدفة وليس أكثر من هذا.

صاح يونس وعروقه منتفخة من هدوء أوزيل قائلًا:

-كيف يكون كل هذا من محض الصدفة؟ كل فرد توقعت له شيء حدث يا أوزيل الجميع رحل عنى بسببك أنت، حتى ناردين لم تسلم من لعنتك تلك جعلتنى أخبرها بأنها ستظل وحيدة كما خلقت، أنها لن تنجب أبدًا،

وبالفعل حدث هذا بعد عودتى إلى بريطانيا وزواجنا، صدمت ناردين بكونها صحراء جرداء لا يمكنها الإنجاب يومًا.

خسرت ناردين بسببك أنت وأصبحت حزين مشرد، وأصبحت أنت رجل سكير لا تبالى بالحياة.

صفعه أوزيل قائلًا:

-قولت لك أنا لم أفعل شيء وهذه صدفة، دعنا ننسى الماضى ونستمتع بحياتنا كما أصبحت.

-ارحل عنى فقد مللت البقاء معك.

ابتسم أوزيل قائلًا:

-وكيف يمكنني الرحيل عنك ونحن فرد واحد يا عزيزي، أنت من أفسدت حياتك أيها الساذج ولست أنا.

- وحان وقت إنهاء هذه العبثية التى أحياها معك، يكفى هذا.

ابتسم أوزيل بخبث قائلًا:

-بُلهاء هؤلاء البشر يفعلون الأشياء بأنفسهم ثم يلقون اللوم علينا.

لم يستطع يونس تحمل ذلك الصوت الذي ينبع من داخل رأسه أكثر من هذا وصرخ بكل ما أوتي من قوة، صرخ صرخة الشقاء والتعب، صرخ صرخة العنة التى أصابت الأخرين دون أن يشعر، صرخ على سذاجته بتصديق أوزيل ، صرخ من فرط الوحدة التى يحياها بمفرده داخل هذه الغرفة حتى أصبح بالأربعين هكذا، صرخ صرخة كل ما لم يتمكن الصراخ

به من قبل، صرخ على تشتته من كونة مذنب لأن توقعاته وتنبأته للأخرين حدثت بالفعل أم كونه بريء وما حدث لهم هم المسئولون عنه وتنبأته ما هى إلا من محض الصدفة كما أخبره أوزيل! صرخ وهو يكسر زجاجة الوسكي على الجدران ووضع الجزء المتبقى بيده اليمنى فى حلقه حتى ينهى هذه المعاناة.

هنا فقط ارتفع صوت المغنى وأخذ يدندن قائلًا:

" كل دا كان لية..! "

تمت...

شكر خلاص

والدتي وعائلتي

بسنت عمر

صفية أحمد

أحمد الميهي

محمد إبراهيم

شكراً لأنكم آمنتم بي وبنجاحي، في وقت كنتُ لا أؤمن فيه بنفسي..
شكراً لكم من أعماق قلبي على دعمكم الذي قدمتموه حتى يخرج هذا العمل إلى النور.